

روايات الخلال

الحاج مراد

تولستوى

Amly



الحاج مراد



تولى



محمد الدين عفتي ناصف



دار الملل

الكتاب يرشد القارئ
محمد محمد تقي

مقدمة

مؤلف هذه القصة ليو تولستوى (١٨٨٢ - ١٩١٠) شيخ كتاب روسيا حتى أوائل القرن العشرين . وقد نحا نحوا جريئا فى التحرر حتى ذهب الى الفاء الجنسية والحدود وفوارق الأديان ودعا الى العود الى حب الله وفقا للسلطة الأولى التى شرعتها الأديان . وجاهر فى روسيا - حامية الأورثوذكسية الى ما قبل الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ - بالثناء على (رسول الله صلى الله عليه وسلم) وتحبذ بعض اصول الشريعة الاسلامية ، كما نعى على الغربيين كثيرا من عاداتهم كالرقص والميسر وشرب الخمر . وقد رفعه ملايين من الناس الى مصاف الانبياء ، واحسن رثاءه فى مصر احمد شوقى ، وحافظ ابراهيم ، واحمد لطفى السيد .

وكان يكتب بالسهولة وابرز الحقائق اللذين يتميز بهما الادب الروسى ، ويبدو انه تأثر اول الامر بجان جاك روسو وشوبنهاور . ومن اشهر مؤلفاته : « الحرب والسلام - انا كارنينا - سوناتة كرويتسر - البعث - الرفات الحى » .

ومنها « الحاج مراد » هذه . وهذه قصة واقعية شهد بعض حوادتها وتخيل سائرها . وقد نوه فيها بمسلى القوقاز الذين هبوا يناهضون الاستبداد الروسى والظفبان القيصرى باستخفاف الحكام وبعثرتهم اموال الدولة على ملاذهم على حين يتضور ابناء الشعب من كلب المسفة . هب المسلمون اذ ذاك وعلى راسهم « المريدية » وهى مذهب كالصوفية انتشر فى القرن الثالث للهجرة ونادى بالفضائل الاسلامية الاصيلة كالتضحية ذبادا عن الدين والوطن والانسانية وكالمساواة بين الفقراء والاعنياء والتجرد عن المطامع والشهوات حتى فى الآخرة وذلك كى يحسن توجيه الناس الى الله . ثم رد المؤلف اخفاق المسلمين فى تلك الفترة الى تفرق الزعماء وانانيتهم وان هو قد مجد الصومود والتفانى فى سبيل ما يحسبه كل انسان مثله الأعلى .

هذا على الأيجاز . وقد تفضل الصديق الأستاذ على آدم - وقد راجع الترجمة - بسط القول مشكورا في مخلص القصة ومنزلتها بين القصص العالمية المحرطة .

مجد الدين حفي ناصف

تقديم

ليو تولستوى في طليعة الكتاب الروسيين ، وعلم من اعلام الادب العالمى ، وقد عرفه قراء اللغة العربية منذ اوائل القرن العشرين بما اذيع من اخباره وما ترجم من آثاره ، وهو كاتب كثير الجوانب ، متمدد الواهب ، فهو روائى من الطراز الاول ، ومفكر اجتماعى ممتاز ومصالح دينى اصيل ، وباحث اخلاقى له وزنه ، ويكاد يتعمد اجماع تقاده ودارسى كتبه على ان الناحية الفنية في تولستوى هي اهم نواحيه واسماها ، وقد نجد نظراء لتولستوى المفكر او تولستوى المصلح وناقد المجتمع ، ولكن تولستوى الفنان قليل النظر نادر المثال .

وقصة الحاج مراد التى اقدمها للقراء ليست من مؤلفاته الضخمة الواسعة الاناق الحافلة بمختلف الشخصيات ، ولا من طرفه الفنية الذائعة الصيت التى رفعت من قدر الادب الروسى مثل « الحرب والسلام » و « انا كلارينا » و « البعث » ولكنها مع ذلك على ايجازها تعد من الناحية الفنية من انضج مؤلفاته واكثرها استيفاء لشرائط الفن واقربها الى الكمال ، وتتجلى فيها قدرة تولستوى المعجزة

على السرد السهل التدفق الذى يبلغ غايته من اقرب الطرق وايسرها وبراعته في تصوير المشاهد وخصائص شخصيات القصة بلمسات سريعة بسيطة واشارات موجية نفاذة ، وهو يبدأ في وصف الشخصيات بارزاز الخصائص البدنية واللامح البادية الدالة على نوع الشخصية ويتبع ذلك بالحديث عن الصفات الروحية ، والزوايا ذلك بالحديث عن الصفات الروحية ، والزوايا النفسية ، والسلمات الاخلاقية ، فتتكشف لك حقيقة الشخصيات التى تقرا عنها ،

وتتمثل لخيالك ، وتكاد تقع عليها عينيك ، وتلمسها بلك ، ولا ترى باناسا في الحقائقها بسجل من عاشرت من الناس وبلوت اخلاقهم وعرفت طبائعهم ، ومما جعل لهذه القصة مكانة ممتازة بين آثار

الى اخيه سرجى يقول : « اذا كنت تحرص على اجتذاب الانتظار
بأخبار عن القوقاز ففي وسعك أن تذكر أن من يدعى الحاج مراد
(وهو التالي في الأهمية لشامل نفسه) قد استسلم منذ أيام قلائل
للحكومة الروسية ، وقد كان زعيم الشجعان والشياطين المردة في بلاد
الشراكسة ، ولكنه سبق الى ارتكاب عمل دنىء » .

وكانت روسيا قد اخذت في إخضاع بلاد القوقاز وبسط سلطانها
على أهلها . وكان ما بين أهلها من منازعات وأحقاد وتورات يحول
دون وقوفهم صفا واحدا في وجه التقدم الروسى ، ولكن أدغال
شيشنيا وأجبال داغستان وأحماها كانت تجعل استيلاء الروسيين
على هذه الأنحاء عملا شاقا ، وكانت قد قامت في تلك البلاد حركة
دينية اسلامية صوفية النزعة ترمى الى عدم التفرقة بين الأغنياء
والفقراء ، وتحض على الزهد فى طيبات الحياة ، وتوصى بالتقشف
وانكار الذات وتحرير النفوس من أسر الأهواء واللذات ، وهى حركة
المريدين ، وكان الذى يلحق الناس مبادئ المذهب بسمى المرشد ،
وأتهامه هم المريدين .

وفى سنة ١٧٨٥ ظهر زعيم مجهول الأصل اسمه منصور فى بلاد
القوقاز واستنفر الناس الى محاربة الروسيين وعلان الحرب الدينية
وابتداءا من سنة ١٨٣٠ قاد سكان القوقاز الى الحرب قاضى موللا
وهو اول امام من أئمة المريدين جمع بين السلطة الزمنية والسلطة
الدينية وتحولت حركة المريدين الى محاولة قومية للأقباء على
استقلال القوقاز والأشباك فى حرب ضروس مع الروسيين ، وكان
شامل الذى خلف حمزة أعظم أئمة المريدين ، وأبعدهم شهرة ، وهو
من الأشخاص البارزين فى قصة الحاج مراد .

وقد ولد شامل فى سنة ١٧٩٧ وتلقى العلم على استاذة الموللا
جمال الدين وقام بدور رئيسى فى اعلان الحرب الدينية على
الروسيين ، وكان الزعيم الروحى والقائد الحربى للقبائل التى ظلت
تحارب الروسيين من سنة ١٨٢٤ حتى سنة ١٨٥٩ ، وقد أتم
شامل الروسيين كثيرا وكبدهم خسائر جمة ، وحالفه الانجليز
والفرنسيون فى خلال حرب القرم التى امتدت من سنة ١٨٥٣ الى
سنة ١٨٥٦ ، وقد نال شامل شهرة أوروبية واسعة ، ولكن قدرته

تولستوى الفنية أن تولستوى المفكر أو تولستوى الواعظ الاخلاقى
قليل الظهور بين سطورها ، فهى من الناحية الموضوعية البحث
والفنية الخالصة فى طليعة قصصه ورواياته .

وهذه القصة من آثاره الادبية التى طبعت بعد موته ، وقد روى
لنا صديقه وناقل مؤلفاته الى اللغة الانجليزية المابر مود هذه
الرواية ، قال : سالت تولستوى قبل وفاته بسنة : ما هى مؤلفاتك
غير المطبوعة التى تعدها ذات قيمة ؟ فأجابه تولستوى : « الحاج

مراد والجنّة الحية ليس غير » . وقد اتم كتابتها وهو فى الرابعة بعد
السبعين من عمره ، ومع حسن ظنه بها لم يقدمها للطبع لأن كل
ما كان يقدمه للطبع فى الثلاثين السنة الأخيرة من حياته كان يزيد
ازمة حياته العائلية شدة وتوترا ، فقد كان الرجل زاهدا فى المحافظة
على حقوق الطبع وكانت زوجته - على خلافه - شديدة الحرص على
هذه الحقوق ، وكان اختلاف وجهة نظريهما فى هذا الموضوع مشار
شقاق دائم وصراع عنيف .

وتتمناز القصة بأنها توضح الفرق بين حياة الروسيين من
ضباط وجنود وكبار موظفين وحياة القوقازيين الجليليين المطبوعين على
حب المغامرة والاستهانة بالصعاب . فالفتى الدار - أحد أتباع الحاج
مراد - وهو فى موقف يثير الخوف ويبعث على اليأس وانثام العزم ،
لا تلتين قناته ، ولا تفتر همته ، وبضيق صدره لأن رئيسه الحاج مرادا
لم يأمر بالتقدم للامانة الاعداء الذين يفوقون فريقه عدة وعديدا .

والحاج مراد بطل القصة رجل مقدم غير هيب ، وفارس مفوار
ومحارب مستنبد كرار ، يموت فى آخر القصة ميتة جديرة بأن يقول
ابو تمام فى مثل صاحبها :

فتى مات بين الضرب والطمع ميتة

تقوم مقام النصر ان فاته النصر

وقد عاش تولستوى فى بلاد القوقاز حينما من الزمن ، وخبر أحوال
أهلها ، وعرف اسلوب حياتهم ، وانماط تفكيرهم ، ولقى الحاج مرادا
نفسه فى تلبس سنة ١٨٥١ ، وكان تولستوى قد ذهب الى القوقاز
فى ذلك الوقت ليؤدى امتحان صف ضباط الجيش ، ومن هناك كتب

قبائل القوقاز على المقاومة اخذت تتناقص ، واستطاع الروسيون بعد انتهاء حرب القرم ان يوجهوا قوات كثيرة الى القوقاز للاستعانة بها على اخضاعه ، وانتهت مقاومة قبائل القوقاز بالقبض على شامل في سنة ١٨٥٩ ، وقد قضى بقية ايامه اسيرا في كالوجا وسان بطرسبرج وكيف ، ومات في مكة حاجا سنة ١٨٧١ ، والتحق احد ابناءه بخدمة الجيش الروسي ودخل ابنه الاخر في صفوف الجيش التركي .

والظاهر ان حركة المريدن الصوفية الدينية والسياسية القومية لم تستطع ان تمحو الاحقاد والاعن والضغائن من قلوب هؤلاء الجليلين الجبابرة العناة ومعزت عن كبح نواتهم ، والارتفاع بهم فوق الخلافات والاهواء والشهوات ، وفي القصة اشارات مجملة عن اسباب وقوع الخلاف بين الزعيم شامل والبطل المقدم الحاج مراد ، ومهما كانت الاسباب التي دعت الى قيام هذا الخلاف فانه كان من بواعث اضعاف مقاومة القبائل القوقازية وتغلب الروسيين في النهاية .

ولا يفوتني قبل ان اختم هذه الكلمة ان استرعى النظر الى الصورة الباهرة الدقيقة الصادقة التي قدمها لنا تولستوى عن اخلاق القيصر الطاغية المستبد تقولا الاول وملكاته وتصرفاته وهو الذي حكم روسيا يد من حديد سنة ١٨٢٥ الى سنة ١٨٥٥ وسار على خطة ابيه القيصر بول الذي يروى عنه انه قال للسفير الفرنسى حينما سمع منه ان رجلا له اهمية في روسيا معنى بامر من الامور فاستشاط القيصر غضبا وقال للسفير في حدة : « ليس في امبراطوريتى رجل له اهمية الا الرجل الذى قد يتفق ان يتحدث اليه ، واهميته تظل طوال المدة التي اوجه اليه فيها الحديث » .

وقد بلغ الطغيان القيصرى ذروته في عهد القيصر تقولا الاول ، ولم يخضع تولستوى بما أسفه المتلقون والوصوليون على هذا القيصر المستبد من اوصاف العظمة والجلال ، ونفذ الى دخيلته ، وفطن لحقيقته .

وكشفه لنا رجلا دعيا مزهوا بنفسه متمجرفا عبدا لشهواته متناقض الافعال والاقوال ، ينسب الى نفسه ما ليس له ، ويتبرأ

من بئمة هفواته وخطل سياسته ، وقد كانت سياسة هذا القيصر من البواعث التي مهلت السبيل لحدوث الانقلاب الروسى الذى وقع في سنة ١٩١٧ ، فقد اتبع خلفه سياسته المدمرة ، وخطته العرجاء ، حتى جنو الر من ثمراتها ، وتل مرشهم ، وايحت دماؤهم في النهاية .

على انهم

كنت عائدا الى منزلى بطريق الحقول ، وكان ذلك فى اواسط الصيف ، وقد انتهوا من حصاد الدريس وأخذوا توا يجنون الشيلم (١) وفى هذا الموسم من كل عام تزدهر طائفة متنوعة من الأزهار : برسيم ذو خصال احمر وأبيض ووردى يزكو شداه ،

وعرار ناصع فى بياض اللين ذو قلوب مصفرة مشرقة عطرية مستحبة وشلجم (٢) اصفر الزهر يفوح منه عبير كالشهد ، ونبات الاجراس الطويل ذو النواقيس البيضاء والبنفسجية الناصلة اللون الخزامية الهيئة ، والحمص الجبلى الزاحف والجلبان (٣) الاصفر والاحمر والوردى ، وطلع (٤) أرجوانى متضائل الشذى اتيق التنسيق بزهره ذى الخضاب الوردى الحائل ، والترنشاء (٥) تكتسى براعمها الحديثة التفتح الازرق اللامع فى ضياء الشمس ويتردد شحوبها واحمرارها كلما اقترب الضروب أو كبرت سننها ، وزهور الكشوت (٦) التى أسرع اليها اللببول .

وعندما جمعت بنفسى باقة كبيرة ، وكنت فى طريقى الى بيتى ابصرت فى حفرة نباتا من رأس القنفذ (٧) كامل الازدهار فى ألوان قرمزية متفاوتة ، وهو نبات يطلون عليه فى المناطق المجاورة اسم « التتر » ويتكبرونه فى حذر عند الحصاد . واذا حدث انهم قطعوه اتقوا به بعيدا عن الكلا خشية ان ينخس ايديهم . وفكرت فى تطفه هذا الحسك ورشقه وسط باقتى ، فنزلت الحفرة زاحفا وطردت نحلة طنانة مخملية كانت قد تغفلت الى داخل زهرة من

- (١) الشيلم : حبوب تشبه الشميم .
- (٢) الشلجم : نوع من اللفت الطليل .
- (٣) الجلبى او الجلبان : نبات له زهر ذو قشرة .
- (٤) الطلج : نوع من الموز أصله هندي أو افريقى .
- (٥) الترنشاه : زهر عتيرى الشذا .
- (٦) الكشوت : نبات لا ورق له يلف على الشوك والشجر .
- (٧) رأس القنفذ : نبات كثير الحسك أو الشوك .

الزهرات وراحت هناك فى سبات اللبد ، ثم أخذت أعمل على تطف الزهرة ، ولقيت فى ذلك عناء شديدا ، اذ لم تنخسنى ساقها من ال صوب فحسب حتى من خلال المندبل الذى لفتت به يدي ،

ولكن بلغ من صلابتها ان كان على ان اجاهدها قرابة دقائق خمس وانا أفص اليافها الواحدة تلو الأخرى . حتى اذا ما اقتلعتها آخر الامر كانت الساق كلها قد تهرات ، ولاح ان الزهرة نفسها عربت عن نضارتها وجمالها . فضلا عن ذلك فانها - لخشونتها وتيسها - لم يبد انها فى المكان اللائق بها بين ازاهير باقتى الرقيقة .

فالقيت بها بعيدا وأنا اشعر بالأسف على انى اثلقت دون طائل زهرة كانت تبدو جميلة فى المكان اللائق بها .

« ولكن اية طاقة وای اصرار ! وبأى عزم ذبت عن نفسها ! وبأى ثمن غال باعت حياتها ! » فكرت فى هذا وأنا اذكر الجهود التى جشمتنى اياها اقتلاع الزهرة . وكان يقتضى الطريق الى بيتى ان اعبر حقولا من الطين الأسود تم حرثها توا . فارتقيت السبيل المتربة وكانت الحقول المحروثة ملكا لاحد ملاك الأرض ،

وكانت مترامية الأطراف حتى انه لم يكن هناك على جانبي وامامى قمة الاكمة شئء ظاهر للعيان غير أرض ندية خددها المحراث تخديدا سويا . فقد حسن حرثها فلم ير فى أى مكان صف من حشيش ،

او نبات ابا كان نوعه ، ومعها كلها السواد . « آها . أى مخلوق مخرب هذا الانسان . وكم من حياة نباتية منوعة يدمرها ليديم كيانه هو ! » هكذا فكرت وأنا ابحت حولي بحركة لا ارادية عن أى كائن حتى فى هذا الحقن الأسود الذى لا حياة فيه . ورأيت امامى الى بين الطريق شيئا كالقرمة فلما دنوت منه الفيته ذلك النوع من الحسك الذى كنت اقتلعت دون طائل والقيت به بعيدا . وكان

لنبات « التتر » هذا ثلاثة فروع احدها مكسور ناتئ كعقب ذراع بترء ، والاخران يحمل كل منهما زهرة كانت فى وقت ما حمراء واسودت الآن . وكانت احدى الساقين مكسورة تدلى نصفها بزهرة متسخة فى رأسها . وظلت الساق الثانية قائمة وان تطلخت هى الأخرى بالوحل الأسود . وجلى ان عجلة مركبة نقل مرت على

النبات ولكنه نهض ثانية ، ولهدا - وان بقى قائما - انعقص ناحية كأنها نزع منه جزء من جسمه واخرجت احشاؤه واجتنت ذراعه

واقلمت احدى عينيه ، ولكنه مع هذا وقف ثابتا ولم يلعب للانسان
الذى املك سائر اخوته من حوله ...

« اية حيوية ! لقد قهر الانسان كل شيء واهلك الملايين من
النباتات ولكن هذا النبات لم يلعب ! » هكذا فكرت ، واستطردت
فتذكرت قصة وقت في القوتاز من سنوات خلت شهدت بعضها
بنفسى وسمعت بعضها من شاهد عيان وتصورت ما بقى منها .

والقصة كما تشكلت في ذاكرتى وخيالى هي :

وقت في اواخر ١٨٥١ .

في احلى امسيات نوفمبر الباردة ركب الحاج مراد الى مخيم ،
وهي (مطلة) متناوئة في ششنيا ، تبعد خمسة عشر ميلا من
الاصقاع الروسية مقعصة بالبخان العطر (بالطة) الموقدة . وكان
الزمن قد فرغ توا من انشاد اذانه بصوت مجتهد . ومن خلال
جو الاكمة الصافي للشبح بدخان (الحلة) . ومن فوق خوار
السوام وفتاه الافناء التى كانت تتفرق في (الحلات) يرحم بعضها
بعضا كغلابا الشهد) يسمع في وضوح اصوات الرجال الطقية وهم
يتخاصمون ، وضجيج اصوات النسوة والاطفال يرتفع من جوار
انتبح الذى في اسفل .

وكان هذا هو الحاج مراد نائب (شمل) وهو شهر بجولاته
وصولاته . وقد اعتاد الا يخرج راكبا من دون بيرقه وعشرات من
المتردين يحرسونه ويتظاهرون من املهم . ركب الآن وقد قلقتن
وتدثر ببرد برزت من تحتها بندقية ، اما لا يراقبه الا (مراد)
واحد ، محاولا جهده الا يستلفت الاظلم ، جلالا بعينه السودانين
الطدتين في وجوه من يتقاهم في طريقه .

وعندما بلغ الحلة استدار بيرة الى شارع جانبي ضيق - بدلا من
ان يصعد بفرسه الى البنان الطيق - فلما وصل الى الدارة الثانية
المحصورة في سفح الاكمة توقف وعلقت من حوله ، ولم يكن تحت
السقيفة الاملية احد ، ولكن رقد على سطح الدارة نفسها - خلف
المدخنة التى كسيت حديثا بالخرف رجل يلف فرو شان . فلمسه
الحاج مراد بمقبض سوطه الجلدى المضر وفرقع بلسان السوط ،

فنهض من تحت فرد الضان عجوز يلبس مثلها (١) قديما ودكا (٢)
وطاقيه . ولم يكن لجفنيه الملبين الاحمرين اهداب فطرف ليزيل

التصاقهما . وردد الحاج مراد التحية المألوفة « السلام عليكم ! »
وكشف عن وجهه . فقال العجوز - وقد عرفه وابتسم بغمه
الادرد : « وعليكم السلام ! » وما ان رفع نفسه على ساقيه التحيلتين
حتى اخذ يدفع قدميه في (القيقاب) الذى استقر الى جانب
المدخنة ثم دس ذراعيه ورويدا داخل فروته المجددة وبمع السلم
الخشبي المستند الى السقف ونزل وظهره الى الخارج . وفيما
كان يلبس وينزل ظل يهز راسه فوق رقبته الرفيعة المتفضنة التى

لوحتها الشمس يتمتم شيئا بغمه الادرد . ولم يكد يصل الى الارض
حتى امسك في ترحيب بشكيمة جواد الحاج مراد وركابه الايمن ،
غير ان المرید القوى النشط ترجل في سرعة ، وهو يومئ الى
العجوز بان يتنحي جانبا ، واخذ مكانه ، وترجل الحاج مراد كذلك
ومشى في عرج خفيف ودخل تحت السقيفة . وخرج من الباب في
سرعة صبية في الخامسة عشرة ولقيه وركز دهشا عينيه المتالتين
السوداوين (كالخوخ البرى الناضج) فى القادمين الجديدين .

فقال العجوز آمرا ، وهو يتقدم مسرعا ليفتح الى داخل الدارة
الباب الرقيق ذى الصرير : « اجر الى المسجد وناد اباك » .

وفما كان الحاج مراد يلج الباب الخارجى آت من باب داخلى
امرأة نصف تحمل وسائله ، وكانت واهنة هزيلة في سترة صفراء
ومشلح احمر وسراويل زرقاء واسعة .

وقالت : « هبطت السعادة مع القادم ! » واتحت حتى كادت
تنتشى نصفين ، واخذت : تسوى الوسائل فى محاذاة الحائط
الاملى كى يجلس عليها الضيف .

فاجاب الحاج مراد : « عاش بنوك » . وخلع برده وبنديقته
وسيفه وسلمها الى العجوز الذى علق البندقية والسيف فى عناية
على مسمار الى جانب اسلحة رب البيت وكانت معلقة بين طستين

(١) للشبح : قميص ذو اكمام واسه القترى « بشميت » .

(٢) دوك : اى زلق من العنن الذى يعلوه .

واسمعي يلمعان على الحائط التنظيف الذي كسى بالخزف والذي عنى
بطلانه بالجبس « الجير » الأبيض .

سوى الحاج مراد الغدارة عند ظهره وصعد الى الوسائد والتف
في سترته الشركسية التفافا محكما ، وجلس العجوز القرفصاء
على عقبة العاريتين بجسواره وأطبق عينيه ورفع راحتيه الى
أعني ، وكذلك فعل الحاج مراد . وبعد ان رددا دعاء مسح كل منهما
وجهه مارا بيديه الى أسفل حتى تلاقت الراحتان عند نهائية
لحيتيه .

واستفهم الحاج مراد موجها كلامه الى العجوز : « نى خبر ؟ » .
(هل من جديد ؟) .

فاجاب وهو ينظر بعينه الحمراءين الهامدتين ، لا الى وجه
الحاج مراد بل الى صدره : « خير يوك » « لا جديد » « انى اعيش
فى المنحل وحضرت اليوم فقط لأرى ولدى ... وهو يعرف » .

ولما فهم الحاج مراد ان العجوز لم يرد ان يقول ما يعلم وما اراد
الحاج مراد ان يعرف اغرب رسمه اصرافة يسيرة ولم يزد
سؤالا .

فقال الرجل : لا توجد اخبار طيبة . والخبر الوحيد هو ان
الأرانب ما تزال تجادل فى كيف تقضى النسور ، والنسور تمزقها
واحدا فواحدا . وقد حرق كلاب الروس منذ ايام الدريس فى « محلة
متمتت .. » وازاف غاضبا فى صوت أجش : « مزق الله
وحويهم ! » .

ودخل مرید الحاج مراد الى الغرفة ، وساقاه القويتان تنفرجان
بخطى واسعة وثيدة فوق الأرضية الترابية ، فاستقى خنجره
وغدارته ليس غير ، وخلص برده وبنديته وسيفه مثلما فعل الحاج
مراد ، وعلقها على المسامر نفسها التى علق عليها زعيمه اسلحته .

واستفهم العجوز مشيرا الى القادم الجديد : « من يكون ؟ » .
فقال الحاج مراد : « انه مریدی ، واسمه الدار » .

فقال العجوز : « حسنا » وأما الى « الدار » بمكان على قطعة
من اللباد الى جوار الحاج مراد . فجلس الدار متقاطع المساقين

فانرا عليه اللطيفتين كعيني الكرش على العجوز الذى - بعد ان
قال الكلام الان - طفق يقص كيف قبض رفقائهم البواسل على
الروسين فى الاسبوع المنصرم وقتلوا احدهما وارسلوا
الآخر الى شامل فى فيدان .

فدعاه الحاج مراد فى غير انتباه وهو يرمق الباب ويصنى الى
الاشارات فى الخارج . ومن تحت السقيفة سمع وقع اقدام ، وصر
الكل ، ودخل سعد سيد الدارة ، وهو رجل فى نحو الأربعين ذو
لحية سفرة وانف طويل وعينين سوداوين وان لم تتألقا تالقت عيني
والله البالغ خمس عشرة سنة الذى كان قد جرى ليناديه والذي
دخل الان مع ابيه وجلس الى جانب الباب .

خلع سيد البيت (قبقابه) لدى الباب ورفع طاقيته القديمة
الناقى (١) الى مؤخر رأسه (التى لم تحلق منذ زمن طويل حتى
انزلت تكلف بالشعر الأسود) ولم يلبث ان جلس القرفصاء امام
الحاج مراد .

« ورفع هو ايضا راحتيه الى أعلى مثلما فعل العجوز وردد دعاء
« مسح وجهه بيديه الى أسفل ، وبعد ذلك فقط بدأ يتكلم . قال :
ان امرا صدر من شامل بالقبض على الحاج مراد حيا او ميتا ،
وان مبعوثى شامل بارحوا فى اليوم السابق ليس الا ، وان الناس
بختون عصيان وأمر شامل . وان الحذر ضرورى اذن تبعنا
لذلك . »

فقال سعد : « فى بيتى لن يؤذى احد اخى فى العهد ما حبيت ،
ولسكن كيف تكون الحال فى الحقول الطليقة ؟ .. علينا ان نتبصر
الامر » .

وأصغى الحاج مراد فى انتباه واطرق مؤمنا . وقال وقد فرغ
سعد :

- حسنا جدا ، علينا الان ان نرسل رجلا بخطاب الى الروس
سيذهب مریدی ولكن سيكون فى حاجة الى دليل ..

فقال سعد : سأرسل الاخ (باطة) . وازاف وهو يتحول نحو
ولده : اذهب وناد (باطة) .

(١) الخنق « يفتح اللام للنسوت والمذكر « أى الببال .

فوب الولد من فوره على قلميه المدايين كأنه فوق زميرك
وارجح ذواعيه وزابل الدارة مسرعا . وبعد نحو من عشر دقائق
عاد مع رجل من أهل ششنيا مفتول العضل قصر الساقين ،
لوحته الشمس حتى كاد يسود ، بليس سترة قوقازية خلقسا
مهلهلة ، صفراء ذات كمين ناظين و (طولوق) أسود ذا غضون .
فحيا الحاج مراد القادم الجديد ، ومرة أخرى سال من فوره دون
ان يهدر كلمة واحدة .

« الا تستطيع ان تقود مردي الى الروس ؟ » .

فاجاب (باطة) في ابتهاج : « استطيع ، استطيع يقينا ان افعل
ذلك . وليس في وسع ششني آخر ان يعض مثلما افعل . قد يقبل
غيري الذهاب وقد يمد باى شيء غير أنه لن يصنع شيئا . ولكن ذلك
في مقدوري .

فقال الحاج مراد : « حسنا ، وستقاضي ثلاثة لقاء تمبك » ورفع
ثلاث اصابع .

واطرق (باطة) ليظهر انه فهم ، وازاف انه لا يكبر المال
وانما الشرف وحسب . وان كل من في الجبال يعرف الحاج مرادا
ويعلم كيف ينحر الخنزير الروسي .

قال الحاج مراد : « حسن جدا ، الواجب ان يكون الجبل طويلا
والقتل قصيرا » .

فاجاب (باطة) : « واذن فسامسك عن الكلام » .

قال الحاج مراد : « حيث ينخرج نهر الأرجن الى جانب الجرف
توجد كومتان في ممر بالفاية ، اعرف ذلك ؟ » .

« اعرف » .

قال الحاج مراد : « هناك ينتظرنى فرسانى الأربعة » :

فاجاب (باطة) مطرقا : « اى نعم » .

« سل عن خان محمد ، انه يعرف ما عليه ان يصنع وما عليه
ان يقول » .

« اليس في مقدورك ان تقوده الى القائد الروسي الأمير
فورونتسوف ؟ » .

« بلى ، سأخذه » .

« اليس في مقدورك ان تأخذه وتعود به ثانية ؟ » .

« في مقدوري » .

« اذن فخذها الى هناك وعد الى الفياية ، وساكون انا ايضا
هناك » .

قال (باطة) : « سأنفذ الأمر جميعا » ونهض ووضع يديه على
قلبه وانصرف .

واستدار الحاج مراد نحو ضيفه .

وبدا : « ويجب ايضا ارسال رجل الى تشيكي » .

وامسك يجرب من اجرية الفشك (1) التي في سترته الشركسية
ثم ترك يده تسقط فورا وامسك عن الكلام وقد رأى امرأتين
تدخلان الدارة .

كانت احدهما امرأة سعد وهي المرأة النصف الهوزة التي سوت
الوسائد ، والثانية فتاة جد صفرة بليس سراويل حمراء ومشلحا
اخضر وغطى صدر نوبها جميعا قلادة من العملة الفضية ، وعلق
روبل فضي في ذيل جدطة شعرها الجعد الأسود القصيرة الكثيفة
مع تلك التي تدلت بين صفحتي منكبها الرقيقين . وكانت ميناها
اللتان في سواد الخوخ البري كمينون ايها وأخيها تائقان تائقا مشرقا
في وجهها الصخر الذي حاول ان يتجهج . ولم تنظر الى الاضياف
وان تجلبي أنها أحست وجودهم .

ودخلت امرأة سعد بخسوان صغير مستدير عليه شاي وفطير
بالزبد والجبن (وشرك) ، والفتاة بطست وابريق وفوطه .

وامسك سعد والحاج مراد عن الكلام طوال الفترة التي فيها
تنقلت المرأتان وطيهما من العملة الفضية يوسوس (2) تنقلا رفيقا
بخفيهما ذوى التل النسلم لتصفا امام الاضياف الاشياء التي
أحضرتا .

اما الدار فقد جلس - طوال الفترة التي بقيت فيها المرأتان في

(1) الفشك ضئيل : ما يعرف بالفرطوس .
(2) دوسوسة الجبل أو القصب صوته .

الدارة - ساكتا لا يتحرك كالمثال ، وعيناه اللتان تحكيان عيني الكيش تتركزان على ساقيه المتقاطعتين . ولم ينهد الرجل تنهدا يؤذن بالفرج الا بعد ان خرجنا ولم يعد وقع خطاهما الرقيقة يسمع من وراء الباب .

وبعد ان سحب الحاج مراد رصاصة من كنانة الفشك الذي في سترته الشركية ، وبعد ان اخرج من تحته مكتوبا مطويا ابرزه قائلا :

« سلم الى ولدي » .

« والى اين يجب ارسال الرد ؟ » .

« اليك ، وينبغي عليك ان تبعث به الى » .

قال سعد : « سيكون ذلك » . ووضع المكتوب في جيب فشكة سترته ثم رفع الابريق المعدني وحرك الطست ناحية الحاج مراد .

وطوى الحاج مراد كمي مشلحه الى اعلى على ذراعيه الضليعتين ومد يديه تحت الماء الرائق البارد الذي صبه سعد من الابريق ، وبعد ان نشفهما بالفوطة النظيفة غير المبيضة استدار الى الخوان ، وكذلك فعل الدار . وفيما كان الاضياف يأكلون جلس سعد قبالتهم وشكرهم مرات عديدة على زيارتهم وجلس الولد الى جوار الباب ولم يرفع عينيه المتلاشتين عن وجه الحاج مراد ، وابتسم كأنما يؤكد كلام والده .

ومع ان الحاج مرادا لم يتناول طعاما منذ اكثر من اربع وعشرين ساعة فانه لم يأكل غير قليل من الخبز والجنين ، ثم استل سكيننا صفيرا من تحت خنجره وبسط شبيثا من الشهد على كسرة من الخبز .

قال العجوز وقد ظهر عليه السرور عندما رأى الحاج مرادا يأكل من شهبه : « شهدنا جيد . انه في هذا العام بالذات اوفر واجود منه في كل عام » .

فقال الحاج مراد : « اشكرك » وتحول عن الخوان . وود الدار لو تابع الاكل ولكنه حذو زعيمه ، وما كاد ينصرف عن الخوان حتى ناوله الابريق والطست .

وكان سعد يعلم انه - باستقباله ضيفا كهذا - يعرض حياته

للخطر باستقباله في بيته ضيفا كهذا . لان هذا الاخير بعد ما اختصم الحاج مرادا اذاع بلاغا على اهل ششنيا قاطبة ينهاهم عن ان يستضيفوا الحاج مرادا والا كانت عقوبتهم الموت . وهو يعلم ان اهل المحلة قد يتنبهون في اية لحظة لوجود الحاج مراد في بيته ويطلبون تسليمه ، ولكن هذا لم يرض سعدا فحسب بل بلغ من شأنه ان اشاع في نفسه الفبطة ، وانما عد ان من واجبه ان يحمي ضيفه ولو دفع حياته ثمنا لذلك ، وكان فخورا بنفسه مفتبطا بها لادائه هذا الواجب .

واعاد وهو يخاطب الحاج مراد : « طالما انت في بيتي وراسي فوق منكبي لن يمسك احد بسوء » .

ونظر الحاج مراد في عينيه المتلاشتين واقنع بصدق هذا الكلام ، فقال في شيء من الجد :

« نعمت بالسعادة والعمر المديد ؟ » .

فوضع سعد يده على قلبه في صمت اشارة الشكران على تلك الكلمات الكريمة .

وما ان اغلق سعد صفاق (١) نوافذ الدارة ووضع بعض الاعواد (٢) في المدفأة حتى زایل الفرفة وهو منشرح الصدر بادي النشاط الى حد غير مألوف ، وزایل الفرفة وذهب الى ذلك الجزء من الدارة الذي تعيش فيه أسرته كلها . ولم تكن النساء قد اوين الى مخادعهن بل كن يتحدثن عن الضيفين الخطيرين اللذين يمضيان الليلة في الحجرة التي اعدت للاضياف .

(١) الصفاق بكسر ففتح ما يعرف بالصلفة او الدرفة او الدفة .

(٢) الود هنا الفصن بعد ان يقطع .

فسال الصوت الأتيس : « هل معك عنقه » .

- « ها هو ذا » .

- « لم لا ترشقه فى الأرض رشقا مستقيما ؟ » .

- « انه لا يستاهل الانشغال بأمره » .

- « ستهىء ذلك فى دقيقة واحدة » .

كان التدخين فى الكمين ممنوعا ، ولكنه فى تلك المرة لا يكاد يستحق هذا الاسم ، فهو أقرب الى أن يكون مخفرا أماميا يمنع الجلبين من أن يحضروا خلصة مدفعا يطلقونه على الحصن كما كانت عادتهم . ولذا لم يحسب بانوف أن التخلّى عن لذة التدخين أمر واجب التنفيذ ، ولهذا قبل العرض السار الذى عرضه الجندى . وأخرج هذا الأخير من جيبه مدية واحترق فى الأرض تجويفا صغريا . ثم صقلها وإحكم رشق عنق القليون فيها . ثم ملأ التجويف بالطباق وضغطه على أسفل وأصبح القليون معدا . وتوهج نقاب من الكبريت وأضاء لحظة وجه الجندى المريض الخدين الذى رقد على معدته ، وصفر الهواء فى عنق القليون واشتم بانوف رائحة الطباق المحترق الزكية .

وقال وهو ينهض على قدميه : « ثبته » .

- « طبعيا طبعيا » .

- « ما أحذقك من شاب يا أفديف ! لك حكمة القاضى ! ثم ماذا

أبها الفتى ؟ » .

واقبل أفديف على جانيبه ليفسح مكانا لبانوف تاركا الدخان يفلت من فمه .

وانبطح بانوف على وجهه ، وبعد أن مسح الميسم بكمه أخذ يستنشق .

وبعد أن فرغ الجنود من تدخينهم طفقوا يتكلمون .

فلاحظ أحدهم فى صوت وان : « يقولون أن القائد مد أصابه الى صندوق المال مرة أخرى بعد أن خسر فى الميسر » .

قال بانوف : « سردها » .

- ٢ -

من فزدفز هنسك - وهو الحصن الأمامى الذى يبعد نحو عشرة أميال من المحطة التى كان الحاج مراد يمضى فيها ليلته - خرج ثلاثة جنود وضابط صف وذهبوا الى ما بعد باب شاه جيرنسك . وكان الجنود يرتدون الزى الذى كان يلبسه عسكري التوقاز فى تلك الأيام وهو سترة وطاقيه من جلود الغنم وحذاءين بمتندان الى ما فوق الركبتين وعطائفا (١) يلف ويشد على عرض التكيين من جانب لآخر . حملوا السلاح على عواتقهم وأمسروا (٢) أول الأمر نحو خمسمائة خطوة على طول الطريق ثم اتننوا عنها وتقدموا نحو عشرين خطوة الى اليمين - وأوراق الشجر الخضنة تخشخش تحت أخطيهم - حتى وصلوا الى أرومة شجرة دلب مكسورة مسونة اللون ترى فى صعوبة من خلال الظلام ، وهناك وقفوا . وعند شجرة الدلب هذى جرت العادة بأن ترابط جملة كمين .

أما النجوم النيرة التى بدأ اتها تجرى على طول رموس الشجر عندما كان الجنود يسيرون لدى اختراق الغاية فقد توقفت الآن مثلثة فى اشراق بين أفضان الشجر العارية .

قال ضابط الصف بانوف : « عظيم . انها يابسة » ، وانزل بندقيته الطويلة وسنجنه فى فمقة من فوق منكبها واستندها الى شجرة الدلب .

وكذلك قمل الجنود الثلاثة .

وهمهم بانوف فى عبوس : « أكاد أوقن انى فقدته ؟ لابد أن أكون قد خلفته ورائى أو استقطه فى الطريق » .

فسال أحد الجنود فى صوت مفصح أتيس : « عم تفتش ؟ » .

- « عن بطن ظيوني ، يا للشيطان ، أين ذهب ؟ » .

(١) الطباق « كبر قنم » قناع يشبه المساءة .
(٢) السرى « بالسفن المسومة والراء القنفة » السير ليد .

وامن أفديف : « سيفعل ذلك بالطبع ، انه ضابط طيب » .

فردد الرجل الذى بدأ الحديث : « حسنا حسنا - وعندى ان الجماعة يجب ان تقول له : اذا كنت قد اخذت المال فخيرنا كم عدده ومتى ترده ؟ » .

قال بانوف وهو ينتزع نفسه من الغليون : « سيسير هذا الامر وفقا لتقديره السرية » .

فامن أفديف : « بالطبع » واقتبس مثلا يقول : « الجماعة رجل قوى » .

فأصر المتبرم : « سوف يلزم شراء الشوفان واستحضار الاحذية عندما يقترب الربيع ، وستدعو الحاجة الى مال ، وماذا عسانا نصنع اذا كان قد اختلسه ؟ » .

ورد بانوف : « اقول لك ان هذا سيتبع رغبة السرية . وما هذى بالمرّة الأولى ، انه يأخذه ويعيده » .

وكانت كل سرية فى القوقاز فى تلك الأيام تختار رجلا ليدير شؤون الميرة ، على ان يتقاضى الرجل ستة روبلات و . ه كويك (1)

فى كل شهر ويتناول مؤونته من السرية . وكانوا يزرعون السكرمب ويجففون الدريس ويركبون عربات خاصة تصرف لهم وبزدهون بالخيل التى تطعم طعاما جيدا . وكان مال السرية يودع صندوقا مفتاحه مع القائد وكثيرا ما اقترض هذا من ذلك الصندوق . وقد حدث هذا توا مرة أخرى ، وكان الجنود يتحدثون عنه .

وقد رغب الجندى الشكس نيكييتين فى ان يحاسب القائد على حين ان بانوف وأفديف لم يريا ضرورة لذلك .

ودخن نيكييتين بعد بانوف ثم بسط عطافه على الأرض وجلس عليه مستندا الى ارومة شجرة الدلب .

... كان الجنود صامتين ، وهامات الشجر البعيدة فوق رؤوسهم تتشخص فى الهواء ، وعلى حين فجأة علا فوق هذا الحفيف الخافت

(1) ويساوى هذا بالقدر جنبها انجليزيا لان الروبل فى ذلك الوقت قيمته ثلاث شلنات ..

ال . « اسئل عواء ابن آوى وولولته واعواله واهنافه (1) .

« اسمع الى تلك المخلوقات الملعونة ... كيف تموء ! (2) » .

« لاحظ الصوت العالى للثالث وهو جندى من يكرينيا : « انها ... ضحك منك لان فالك كله على ناحية واحدة » .

« وصمت كل شيء من جديد اللهم الا الريح التى تميل بالفصون وتكشف النجوم تارة وتخفيها طورا .

« وعلى حين فجأة سأل أفديف المرح : « اسمع يا بانوف ، اتشعر بتبديل فى بعض الأحيان ؟ » .

فأجاب بانوف فى احجام : « بتبديل » : لماذا ؟ .

« اما انا فكذلك ... انى اشعر احيانا بحالة من التبديل تجعلنى لا اعرف ما الذى قد لا اكون مستعدا لان اصنع بنفسى .

فكان كل ما اجاب به بانوف قوله : « وبعد ، وبعد ! » .

« تلك المرة التى حسوت فيها النقود كان مردها الى التبديل الذى استولى على ... استولى على حتى قلت لنفسى : سأشرب حتى عمينى السكر ! » .

« ولكن السكر احيانا يزيد الحالة سوءا » .

« اجل ، ذلك ايضا حدث لى ، ولكن ما عسى ان يصنع المرء مع نفسه ؟ » :

« ولكن ما الذى يجعلك تشعر بمثل هذا التبديل ؟ » .

« انا ؟ ... انه الحنين الى الامة » .

« وعلى هذا ، هل اسرتك ذات سعة ؟ » .

« كلا ، لم تكن كذلك ، ولكن الامور كانت تسير سيرا حسنا ، فعشنا عيشة ميسورة » . واخذ أفديف يقص ما سبق ان قصه على بانوف مرات عديدة .

قال : لقد انخرطت فى سلك الجنديّة بمحض ارادتي بدلا عن

(1) الاهناف او التهنيف : ضحك فى فتور كالتستهيز . اما الاعوال فهو اليكاه بصوت عال ..

(2) الخواء صياح القطط ونحوه .

فلما حاذى هذا الشبحان الجنود خرج بانوف وبنديته في يده
الى الطريق وتبعه رفاقه .

وصاح : « من السارى هناك ؟ » .

قال الاصر : « انا ، ششنى صديق » ، وكان هو (باطة) .
واشار الى نفسه قائلا : « بنديته يوك (١) ، سيف يوك ، الامر
اريد » .

ووقف الاطول صامتا الى جانب رفيقه وكان غير مسلح كذلك .

فسر بانوف لرفاقه : « يعنى انه كشاف ويريد امير الاوى » .

قال (باطة) : « الامر فورونتسوف .. كثيرا جدا اريد ! شغل
كبير ! » (٢) .

قال بانوف : « طيب طيب ، سنأخذك اليه » .

ووجه الكلام الى أفديف : « اسمع ! الاولى ان تأخذها انت
ويوندارنيكو ، فاذا سلمتهما الى الضابط الذى عليه الحراسة فصد
ناية » واضاف : « احرص على ان تجعلهما امامك ! » .

فقال أفديف وهو يحرك بندقيته وسنجه كأنما يطمئن شخصا
ما : « وما قولك في هذا ؟ ما على الا ان اعزق عزقة واترك النفس
يخرج منه ! » .

فلاحظ يوندارنيكو : « وماذا يساوى بعد ان تخزه ؟ » .

« والآن سر ! » .

ولما لم تعد تسمع خطوات الجنديين اللذين يقودان الكشافين رجع
بانوف وتيكيتين الى موقعهما .

وقال تيكيتين : « يا للشيطان ، ما الذى اتى بهما الى هنا
ليلا ؟ » .

فقال بانوف : « يلوح ان ذلك الامر ضرورى » . واضاف :
« ولكن البرد يزداد شدة » . ثم نشر عطافه ولبسه وجلس الى جانب
الشجرة .

(١) يوك كلمة يستعملها الترك والتر ومن الهم للنفس يعنى :
(٢) تغييرات كثيرة الخطا لانه من عملة التر ولا يحسن الروسية .

اخرى . كان له اولاد .. كانت امرته مكونة من خمسة ، وكنت
حديث الزواج وطعقت امي ترجوني ان اذهب . فقلت في نفسي :
حسنا ، ربما يذكرون لى ما انا صانع . فذهبت الى صاحب الارض
التي نعمل فيها وكان سيدا طيبا فقال : « انت فتى ودع ، اذهب » ،
وعلى هذا ذهبت بدلا عن اخي .

قال بانوف : « كان هذا فى محله » .

« ومع ذلك فهل تصدقنى يا بانوف اذا قلت لك باننى لهذا
السبب خاصة اشعر بالتبلد . انتى اقول لنفسى : لم ذهبت بدلا عن
اخي ؟ انه يمشى كملك هناك بينما تكابد انت هنا . وكلما فكرت
في الامر ازداد شعورى سوءا .. ويبدو انه شيء من سوء الحظ » .
وصمت أفديف .

وقال بعد ان توقف هنيهة : « ربما كان خيرا لنا ان ندخن مرة
اخرى » .

« حسنا ، هيئها اذن ! » .

ولكن الجنود ما كان لهم ان يدخنوا اذا لم يكذ أفديف ينهض
لتثبيت عنق القليون في مكانه حتى سمعوا وقع اقدام على طول
الطريق غطى على حفيف الشجر ، فاخذ بانوف بندقيته ودفن بقدمه
نيكيتين .

ونهض نيكيتين ولقط عطافه .

وكذلك نهض الجندى الثالث يوندارنيكو وقال :

« ... ولقد رايت رؤيا جد غريبة يا رفاق .. » .

قال أفديف : « صه » وحبس الجنود انفسهم مصغين . وسمع
وقع اقدام لرجال يلبسون احذية طرية النعال يقتربون ، وقد تسنى
سماع اوراق الشجر المتساقطة والقصون اليابسة في وضوح مطرد
الزيادة من خلال الظلام . ثم وصلت اصوات اللهجات الحلقية
الخاصة باهل ششنيا . ولم يتيسر للجنود الا ان يسمعوا رجلا
يقتربون وحسب بل استطاعوا ان يروا شبحين يمران من خلال فراغ
خالص بين الاشجار احدهما اطول من الآخر .

فلما حاذى هذان الشبحان الجنود خرج بانوف وبنديته في يده
الى الطريق وتبعه رفاقه .

وبعد نحو ساعتين عاد أفديف وبوندارنيكو .

- « ماذا - هل سلمتهما ؟ » .

- « أجل ، لم يكن رجال أمير الإلاي قد ناموا بعد ، فاقتيدا إليه من فورهما » واستطرد أفديف :

- « أو تعلمون يا رفاق أن هذين الصبيين الحليقي الراس لطيفان ، أجل ، حقاً ، أى حديث تحدثت معهما ! » .

فلاحظ نيكيتين مستنكرا : « بالطبع كان واجبك أن تتحدث » .

- « حقاً أنهما كالروس . واحدهما متزوج . وقلت له : هل (آخذ) (١) ؟ فقال : (خذ) . يابوندارنيكو ألم اقل : (خذ) ؟ (خذ) كثيراً . اثنتين . يا للطف الحديث : ويا للطف الفتين ! » .

فقال نيكيتين : « لطيف ما في ذلك شك ! لو أنك قابلته وحدك لتترك أحشاءك تخرج منك » .

قال باتوف : « سينبثق الضياء عما قريب » .

وقال أفديف وهو يجلس ويتهاى لوضع مريح . « أجل . لقد طفت النجوم تطل » .

وصمت الجنود من جديد .

- ٣ -

أظلمت نوافذ الثكنات ومنازل الجنود طويلا في الحصن ، ولكن أضواء كانت ما تزال موقدة في نوافذ أحسن البيوت جميعا .

وكان يقيم في هذا البيت الأمير سيمون ميخائيلوفتش فورونتسوف قائد فرقة الكورين ، وهو ياور امبراطوري وابن القائد العام . وكانت تقيم معه زوجته مارية فاسيلفنة ، وهي إحدى نساء بطرسبرج (١) اللاتي اشتهرن بجمالهن ، وقد عاشا في ذلك الحصن القوقازي الصغير عيشة كل من سبقت له الإقامة هناك . وقد بدا لفورونتسوف - وبدا لزوجه أكثر منه - أن عيشتهما جد متضعة بل يملؤها الحرمان ، بينما لاح لمن يقيمون حولهم أن بذخهما مذهل معجز .

في تلك اللحظة بالذات في منتصف الليل كان يجلس رب الدار وربة الدار يلعبان الورق مع أضيافهما على منضدة خاصة بذلك (تضيئها شموع أربع) نصبت في ردهة الاستقبال الفخاء التي تكسو أرضها السط ونوافذها ستر فخمة أسدلت عليها من جانب لآخر وكان يشارك فورونتسوف - الذي استطال وجهه ولبس شعار الباورية وأمراسها الذهبية - شاب أشعث كئيب الهيئة تخرج في جامعة بطرسبرج وأنفذته الأميرة أخيرا الى القوقاز ليكون مؤدبا لولدها الصغير (من زواجها الأول) . وعارضهم في اللعب ضابطان : احدهما بولتوريتسكى وهو قائد من قسواد السرية بادلت به واحدا من الحرس ، وثانيهما ملازم بالفرقة العسكرية وقد جلس على كرسيه منتصب القامة جدا يعلو وجهه الجميل تعبير فاتر .

وجلست الأميرة مارية فاسيلفنة - وهي غانية عريضة المنكبين ، واسعة العينين ، مقطبة الجبين - الى جوار بولتوريتسكى وتقبحتها (٢) تمس ساقيه - وهي تطل على ورقة . وكان في الفاظها وفي نظراتها

(١) لينجراد الآن .

(٢) تنورة مبطنة بسلك شكلها كالجرس كانت النبيلات يلبسها بوصفها الصف الاسفل من الثوب .

(١) بار : كلمة يستعملها التتر بمعنى كاذب ، ولعل الحديث هنا مداره لفاق التبخ « السجاير » .

ولم يزد بولتوريتسكى على أن ييسط يديه ويتسم .
وكان دور اللعب على وشك الانتهاء عندما عاد الأمير الى ردهة
الاستقبال منتعشا بادی الجور .
- « اتعلم ماذا اقترح ؟ » .

- « ماذا ؟ » .
- « ان نتناول شيئاً من الشمبانيا » .
قال بولتوريتسكى : « انا دائماً مستعد لذلك » .
وقال اللازم : « لم لا ؟ يبهجننا ذلك » .
قال الأمير : « احضر شيئاً منها يا وسيلي ! » .
وسالت مارية فاسيلفنة : « فيم طلبوك ؟ » .
- « ضابط الحراسة ورجل آخر » .
فسالت مارية فاسيلفنة : « من ؟ وما الخبر ؟ » .
فاجاب فورونتسوف وهو ينفض كتفيه :
- « ما ينبغي لى ان اقول » .

- « ما ينبغي لك ان تقبول ! » رددت ذلك مارية فاسيلفنة ثم
نالت : « سننظر في هذا » .

وعندما احضرت الشمبانيا شرب كل من الاضياف قدحا . ولما
انتهوا من اللعب وسووا حساباه بدعوا يستأذنون في الخروج .

واستفهم الأمير بولتوريتسكى لدى الوداع :

- « هل سيرتك هي التي امر بلدهاها الى الغابة غدا ؟ » .

- « سيرتى ، اجل .. لماذا ؟ » .

قال الأمير وهو يتسم ابتسامة طفيفة : « واذن فسنلتقى فى
الغد » .

فاجاب بولتوريتسكى : « مسرور جدا » غير مدرك تماما ما كان
يقوله له فورونتسوف ، وانما يشغل باله فقط أنه بعد لحظة سيضغط
بد مارية فاسيلفنة .

وفى ابتسامتها وفى طيها وفى كل حركة من حركات جسدها شيء
ينبغ بولتوريتسكى على أمره ويجعله ينسى كل شيء غير احسامه
بقربها منه ، فتوالى خطوه واخذ يشير غضب شريكه أكثر فأكثر .

قال ملازم الفرقة العسكرية وقد احمر وجهه عندما رمى
بولتوريتسكى (آس) : « لا . هذا بالغ السوء . لقد عطلت (آس)
مرة اخرى » .

وحول بولتوريتسكى عينيه السوداوين الرفيقتين (اللتين ركبت
كل منهما بيعة من الأخرى) نحو ملازم الفرقة التبريم ، وذلك فى
غير انتباه كأنما أوقظ من نومه توا .

فقال مارية فاسيلفنة وهى تتسم : « أرجوك ان تغفر له » .
والثقت الى بولتوريتسكى مستطردة : « هو ذا ! ألم أقل لك
ذلك ؟ » .

فاجاب بولتوريتسكى وهو يتسم : « ولكن هذا لم يكن كل
ما قلته » .

- « ألم يكن كذلك ؟ » بهذا استفهمت وهى تتسم ابتسامة مليية
اتلوت بولتوريتسكى وابهجت الى حد انه احمر احمراراً قرمزياً ثم
امسك ورق اللعب واخذ يخلطه .

قال ملازم الفرقة متجعها : « ليس هذا دورك فى التوزيع ! »
وطبق - بيده البيضاء ذات الخاتم - يوزع كأنه اراد ان يتخلص
من الورق على أسرع وجه ممكن .

ودخل وصيف الأمير بهو الاستقبال واعلن ان الضابط الذى عليه
الحراسة يود ان يتحدث اليه .

فقال الأمير باللغة الروسية فى لهجة انجليزية : « لا تؤاخذنى ايها
السادة ، هلا تفضلت باخذ مكانى يا مارية ؟ » .

فاستفهمت الأميرة : « اتوافقون جميعاً ؟ » ونصبت طولها القارع
فى سرعة وخفة وكان لثيابها الحربية حفيف وهى تتسم ابتسامة
المرأة السعيدة المشرقة .

فاجاب اللازم : « انا دائماً اوافق على كل شيء » . وقد سره جدا
ان الأميرة - التى لا يسمها ان تلعب اطلاقاً ستلعب الآن ضده .

ولم تفضط مارية فاسيلفنة يده فى عزم وحسب ولكنها هزتها
هزا عنيفا كعادتها ، وذكرته من جديد بطلفته لى لب الدينارى (١)
وحتىه بما علمه ابتسامه مبهجة ودودة ذات معنى .

وعاد بولتوريتسكى الى بيته فى نشوة لا يدركها الا امثاله الذين
نبتوا فى المجتمع وتربوا فيه ولقوا نساء من بيئتهم بعد شهر من
الحياة الحربية المنعزلة ولا سيما اذا كن كالأمرية فورونتسوف .

فلما بلغ البيت الصغير الذى يسكنه ورفيقه دفع الباب ولكنه كان
مفلقا ، وطرقة من غير طائل ، فافتاظ وأخذ يركله (٢) ويضربه بسيفه .
ثم سمع وقع أقدام ، وفك فوفيلو - وهو خادم له من عبيد الأرض
- عقافة (٣) الكوخ التى تؤصد الباب .

« ماذا تعنى بالأفتال على نفسك من الداخل أيها الأحمق ؟ » .

« ولكن كيف يمكن يا سيدى .. ؟ » .

« عدت الى السكر ! سارك (كيف يمكن) ! » .

وهم بولتوريتسكى يضرب فوفيلو ولكنه عدل عن ذلك .

« اوه ، اذهب الى الشيطان ! ... اوقد شمعة » .

« - حالا » .

وكان فوفيلو سكران حقا . لقد كان يشرب فى وليمة عيد زواج
جندى المهمات ايفان بتروفتش . ولما عاد الى البيت أخذ يقارن
عيشته بعيشة هذه الأخير . كان ايفان بتروفتش ذا مرتب ومرتزا
وإأمل أن يعفى من الخدمة بعد عام .

لقد انتقلت ملكية فوفيلو صبيا - أى انه الحق بخدم منزل سيده
- ومع انه الآن قد جاوز الأربعين فصلا لم يتزوج ، وإنما عاش عيشة
الجنود مع سيده الفتى الأرعن . انه سيد طيب يندر أن يضربه ولكن
أى حياة تلك ؟ وفكر فوفيلو : « لقد وعد أن يعتقنى لدى عودتنا من
القوقاز ، ولكن الى أين اذهب مع حربى ؟ سأعيش كالكلب » .
وشعر بسبات خشى معه أن يدخل ويسرق شيئا ، فأوصد عقافة
الباب وغلغله التعاس .

(١) ورق دى تظ على شكل مبن .. (٢) الركل : الضرب بالرجل .
(٣) العقافة بضمة نشدة : خيبة أو نوحا فى طرفها انقاف أى انحاء . وهى
تنبه « انبية » .

ودخل بولتوريتسكى غرفة النوم التى شارك فيها رفيقه
بيخونوف ، فسأله بيخونوف وهو يستيقظ : « خيرا ، هل
خسرت ؟ » .

« كلا ، حدث انى لم اخسر ، كسبت ١٧ روبلا وشرنا زجاجة
من الكليكو ! » .
« ورنوت الى مارية فاسيلفنة ؟ » .

وردد بولتوريتسكى : « اجل ، ورنوت الى مارية فاسيلفنة » .

قال بيخونوف : « سيؤذن محلا وقت النهوض ، علينا أن نبدا
فى السادسة » .

وصاح بولتوريتسكى : « فوفيلو ! اعمل حسابك على أن توقظنى
كما ينبغى فى الخامسة من صباح الغد ! » .

« وكيف أقدر على ايقاظك اذا عاركنى ؟ » .

« أقول لك : عليك أن توقظنى ! اسمع أنت ؟ » .

« حاضر » .

وخرج فوفيلو ومعسه حذاء بولتوريتسكى وملابسه واندىس
بولتوريتسكى فى الفراش ودخن لقيفة وأطفا شمعة وهو يتبسم فى
الأنباء . وفى الظلام رأى امامه وجه مارية فاسيلفنة الباسم .

.. .. .

أما آل فورونتسوف فلم يناموا من فورهم . اذ عندما انصرف
الأضياف صعدت مارية فاسيلفنة الى زوجها . ووقفت امامه ،
وقالت فى صرامة :

(بالفرنسية) « والآن ، ستخبرنى بما هنالك » .

(بالفرنسية) « ولكن يا عزيزتى ... » .

(بالفرنسية) « لا تنادنى ب (يا عزيزتى) ! كان رسولا ، ليس
كذلك ؟ » .

(بالفرنسية) « ومع فرض ذلك لا ينبغى لى أن اخبرك » .

(بالفرنسية) « لا ينبغى لك ؟ اذن فانا الذى سأخبرك ! » .

(بالفرنسية) « أنت ؟ » .

« كان الحاج مراد ، اليس كذلك ؟ » هكذا قالت مارية فاسيلفتة التي كانت - منذ أيام خلت - قد سمعت بالمفاوضات والتي ظنت ان الحاج مرادا نفسه حضر ليرى زوجها . لم يستطع فورونتسوف ان ينكر هذا كل الإنكار ولكنه أخلف ظنها بقوله ان القادم لم يكن الحاج مرادا نفسه وإنما كان رسولا يعلن ان الحاج مرادا سيأتي ليلقاه في اليوم التالي في الوضع الذي دبر ارسال حملة للاحتطاب اليه ..

وفي حياة الحسن الرئبية اغبط الأصفران من آل فورونتسوف الزوج وزوجته ، كلاهما - بهذه المصادفة . وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية عندما ذهب ليناما بعد ان تحدثا عما سيحيطه هذا الخبر على أبيه من السرور .

- ٤٤ -

وبعد الليالي الثلاث التي لم يذق فيها الحاج مراد طعم النوم والتي قضاها في الفرار من المريدين الذين أرسلهم شامل في طلب القبض عليه أسلم نفسه للنوم بمجرد ان تمنى له سعد ليلة سعيدة وزايل الدارة . نام في كامل برته ، ورأسه على كفه ومرفقه غارق في وسادة الزغب الحمراء التي هيأها له مضيفه .

وعلى مدى قصر الى جوار الحائط نام الدار . رقد على ظهره ، وأطرافه القوية الفتية تستطيل الى حد صدره العالي - وجراب الفسك الأسود مخيط في مقدمة سترته القوقازية البيضاء - علا عن رأسه الالمامة الزرقة الحديثة الاحتلاق التي دحرجها الى خارج الوسادة فطرحت الى خلف . ومطت شفته العليا - التي أخذت زغبة صغيرة ناعمة تبدو فوقها توا - كمثلي شفة الطفل تنقلص تارة وتنسبط طورا كأنما يرشفت شيئا . ونام وغدارته وخنجره في حزامه كالحاج مراد . واشتعلت الأعواد التي في الموقد اشتعالا بسيطا وومض نيراس في شكاة على الحائط ومضا حائلا .

ولما انتصف الليل صر اديم حجرة الأضياف فنهض الحاج مراد من فوره وبده على غدارته ، ودلف سعد بخطى رفيقة على اديم ارض الحجرة .

فسال الحاج مراد كأنما لم يكن نائما اصلا : « ماذا ؟ » .

فأجاب سعد وهو يجلس القرفصاء قبالة : « ينفي لنا ان نفكر : امرأة من سطح منزلها رأتك قادمة ، وأخبرت زوجها ، والمحلة كلها تعلم الآن . وقد أنبا أحد الجسيران زوجتي ان المشايخ احتشدوا بالمسجد يفون اعتقالك » .

فقال الحاج مراد : « يجب ان ارحل ! » .

قال سعد وهو يبرح الدارة مسرعا : « الخيول المرسجة » .

وهمس الحاج مراد : « الدار ! » . وما كاد الدار يسمع اسمه

- وصوت سيده قبل كل اعتبار - حتى وثب عند قدميه ، وهو يقوم طاقيته في الاثناء .

وليس الحاج مراد سلاحه ثم برده ، وكذلك فعل الدار ، وخرج الاثنان في سكون من الدارة الى السقيفة ، واحضر الصبي ذو العينين انسوداوين فرسيهما .

وسمع احدهم طق حوافر على الطريق المدقوق دقا محكما فاطل براسه خارج باب دارة مجاورة وصعد رجل الجبل صوب المسجد يطق ببقابه . ولم يكن القمر طالعا ولكن النجوم اضاءت السماء انداجية اضاءة مشرقة يبرت رؤية الحدود الخارجية لاسقف الدارة في الظلام وكان المسجد بآذنه في الجهة العليا من المحلة يسمو على المباني الاخرى ومنه انبعثت همهمة .

واُسرع الحاج مراد يقبض على بندقيته ويضع رجله في الركاب الضيق ، والقى يده في سكون وسهولة ورجح نفسه على وسادة السرج العالية .

وقال يحاطب مضيغه : « جزاك الله خيرا » فيما كانت قدمه اليمنى تحن بفطرتها الى الركاب ثم مس الصبي الذي امسك بفرسه مسا خفيفا بسوطه ايدانا بان عليه ان يطلقه . فتنحى الفتى جانبا ، وانطلق الفرس - كانه يدري ما عليه ان يصنع - في خفة ونشاط منحدرًا من الحارة صوب الشارع الرئيسي ، وركب الدار من خلفه ، وتبعهما سعد في فروة الضان وهو يكاد يجرى . وصار يرحج ذراعيه ، ويمصر الى احدى ناحيتي الشارع الجانبى الضيق تارة والى الناحية الاخرى طورا . وعند ملتقى الشارعين ظهر في الطريق اول الامر خيال يتحرك وتبعه نان .

وصاح صوت : « قف ... من هذا ؟ قف ! » ومنع الطريق رجال عديدون .

وبدلا عن ان يقف الحاج مراد استل خنجره من حزامه وزاد سرعته وركب راسا مستهدفا اولئك الذين منعوا الطريق فتفرقوا ، ومن دون ان تلفت حوله اخذ يهبط الطريق في خيب سريع ، وتبعه الدار يركض ركضا . وانطلقت طلقتان من خلفهما ثم صفرت رصاصتان الى ابعد منهما دون ان تصيبا لا الحاج مراد ولا الدار . وظل الحاج مراد راكبا بالسرعة نفسها ، وبعد ان قطع نحو ثلثمائة ياردة وقف

بجسه اللاهت بعض الشيء واصاح بسمعه .

وامامه الى اسفل بقيت مياه تنساب مسرعة ، وخلفه في المحلة ساحت الديكة متجاوبة ، وفوق هذه الاصوات سمع وراءه وقع حوافر خيل يتداني واصوات رجال عديدين . ومس الحاج مراد فرسه وساقه في سرعة مطمئنة . وعدا اولئك الذين من خلفه ولحقوا به بعشرين . وكانوا فرابة عشرين فارسا من سكان المحلة قضاوا بان يعقلوا الحاج مرادا او في القليل بان يتظاهروا باعتقاله كى يسوغوا مركزهم في نظر شامل . فلما دنوا دنوا بكفى لرويتهم في الظلام توقف الحاج مراد وترك عنانه يتدلى ، وفي حركة من يده اليمنى تعودها فك ازرار غطاء غدارته التى سحبها باليمين . وكذلك فعل الدار .

وصاح الحاج مراد : « ماذا تبغون ؟ اترومون ان تاخذوني ؟ ... خذوني اذن ! » . ونهر غدارته . فتوقف الرجال الذين اتوا من المحلة . وركب الحاج مراد - وغدارته بيده - منحدرًا في الوهد . وتبعه الخيالة ولكنهم لم يدنوا منه اكثر مما كانوا . ولما عبر الحاج مراد الى الجهة الاخرى من الوهد هتف به الرجال ان يستمع الى ما هم قائلون له . فكان جوابه ان اطلق غدارته وعدا بفرسه . وعندما كسحه لم يكن مطاردوه منى مدى السمع ، ولم يكن صباح الديكة يسمع المثل ، وانما كان جرس خرير الماء في الغابة اكثر وضوحا ، كما سمع نقيق بومة بين القينة والفينية ، وبدا جدار الغابة الاسود محكم الاطباق . وفي هذه الغابة بالذات كان ينتظره مریده .

وعندما بلغها الحاج مراد توقف ، وشهق قدرا وفيرا من الهواء الى رتيته وصفر ثم اصاح في صمت . وفي الدقيقة التالية اجابه من الضبابه صفير مماثل . وانشئ الحاج مراد من الطريق ودخلها . وبعد ان سار نحو مائة خطوة رآى بين اروم الشجرة نارا مشبوبة ، واطياف نهر من الرجال يجلسون من حولها ، وفرسا مسرجا محجلا يكاد يبين عنه وهج النار . وكان اربعة رجال يجلسون على مقربة منها .

ونفض احدهم مسرعا وجاء الى الحاج مراد وامسك بعنانه وركابه . وكان هذا اخاه فى المعهد الذى يقوم بتدبير شئون بيته له .

قال الحاج مراد وهو يترجل : « اخمد النار » .

فاخذ الرجال يعثرون الكومة ويطلون الفصون المشتعلة .

واستفهم الحاج مراد متجها صوب طيلسان بسطت على الارض :

« هل كان (باطة) هنا؟ » .

« اجل ، وذهب منذ زمن بعيد مع خان محمد » .

« اية طريق سلكا؟ » .

فاجاب حنفي : « تلك الطريق » مشيراً الى عكس الاتجاه الذي جاء منه الحاج مراد .

قال الحاج مراد : « حسنا » وخلق الغدارة واخذ يحشوها .

وقال لرجل كان يخمد النار : « علينا ان نحتاط فهم يتمقبوننى » .

وكان هذا الرجل جمرالو من اهالي ششنيا . ذفا جمرالو من الطيلسان ودفع غدارة كانت فوقها ملفوفة في جرابها ، وذهب - من دون ان ينبس بكلمة - الى جانب المر الذي اتى منه الحاج مراد .

ولما ترجل النار تناول فرس الحاج مراد . وكبح راسي الفرسين عاليين وربطهما الى شجرتين ثم تنكب غدارته على نحو ما فعل جمرالو وذهب الى الجانب الآخر من المر . اخمدت النار ، ولم تلح الغابة سوداء كما بدت من قبل ، وظلت النجوم تلمع في السماء وان يكن لهما خافتا .

ولما رفع الحاج مراد بصره الى النجوم وراى ان عنقود الثريا قد علا فصلا حتى توسط السماء ، قدر ان منتصف الليل لابد ان يكون قد حان منذ وقت طويل وان صلاة المشاء مضى على موعدها فترة مديدة . وطلب الى حنفي ابريقاً (كان من عاداتهم ان يتقلا ابريقاً بين احمالهم) ولبس طيلسان وذهب الى حيث يوجد الماء .

وبعد ان خلع الحاج مراد نعليه وتوضأ ، خطا فوق طيلسانه بقدمين عاريتين ، وجلس القرفصاء واتجه الى القلعة ووضع ابهاميه في اذنيه واسبل جفنيه وصلى ركعات الفرض كالعتاد (١) .

ولما انتهى (من الصلاة) عاد الى حيث اتى الخرج وجلس على الطيلسان (البردة) مستنداً مرفقيه الى ركبتيه ، وحتى راسه وراح في تفكير عميق .

(١) كان هنا ايجاز بسيط صوبه المترجم باقرب الالفاظ ال الاصل .

كان الحاج مراد يؤمن بحظه ايماناً عظيماً ، وكان دواماً كلملاً اخطت امراً شمر سلفاً بأنه واثق من النجاح وثوقاً راسخاً ، وكان الحظ يهش له . هكذا كانت حاله - فيما عدا استثناءات نادرة القلة - طوال مجرى حياته الحربية العاصفة ، وهكذا امل ان تكون حاله الان . وقد صور لنفسه كيف - بالجيش الذي قد يضعه فوروتسوف تحت امرته - يزحف على (شامل) ، ويأخذه اسيراً ، ويشار لنفسه منه ، وكيف يجزيه القيصر الروسي ، وكيف يعود فيحكم - لا اقلربا وحسب - بل ششنيا بآجمعها التي ستلعب له . بهذه الافكار راح في النوم على غير ارادة منه .

ورأى في نومه كيف اتقض هو واعوانه البواسل على شامل وهم يتشدون ويهتفون : « الحاج مراد آت ! » وكيف قبضوا عليه وعلى أزواجه ، وكيف سمع الأزواج نعلين . واستيقظ .

ولم يكن اتشاد : « لا اله الا الله » وهتاف « الحاج مراد آت ! » وبكاء أزواج (شامل) غير عواء ابناء آوى التي ايقظته وبكائها وضحكها .

ورفع الحاج مراد راسه وتطلع الى السماء التي - كما لاحت من بين اروم الشجر - اخلت تخف تدريجاً من ناحية الشرق ، واستفهم عن خان محمد من مرید جلس بعيداً عنه بعض الشيء . ولما علم ان خان محمد لم يعد بعد حتى راسه من جديد وراح في النوم توا .

وايقظه صوت خان محمد البهيج ، وقد عاد من مهمته مع (باطة) وجلس خان محمد من فوره في جوار الحاج مراد واخبره كيف لتيها الجنود وقادروها الى الامر نفسه ، وكيف سر الامر ، وكيف وعد بان يلقاهم في الصباح حيث يجندل الروس الشجر بعد المشك في مرر شالين . وقاطع (باطة) الرسول الذي زامله ليضيف تفصيلات من لفته .

واستفهم الحاج مراد بوجه خاص عن الكلمات التي رد بهسا فوروتسوف على ما عرضه من ان يمضى الى الروس . فاجاب خان محمد و (باطة) في صوت واحد بان الامر وعد بان يستقبل الحاج مرادا على انه ضيف وبان يتصرف بما فيه خيره .

وسألها الحاج مراد عن الطريق . فلما أكد له خان محمد بأنه يعرفها جيدا وأنه سوف يقوده رأسا إلى الموضع أخرج الحاج مراد بعض المال وتقد (باطة) الثلاثة الزويلات الموعودة . ثم أمر رجاله بأن يخرجوا من الخرج أسلحتهم المشاة بالذهب وعمامته وأن ينظفوا أنفسهم حتى تحسن هيئتهم لدى وصولهم بين الروس .

وفيما كانوا ينظفون أسلحتهم وخیلهم ومعهداتهم غارت النجوم وأشع الضياء جليا ، وسرى نسيم الصباح الباكر .

- ٥ -

في الصباح الباكر والسماء ما تزال مظلمة ، سرت سررتان تحملان العنوس بقيادة بولتوريتسكى ، إلى ما بعد باب شاه جيرينسكى بستة أميال ، وبعد أن نشرتا صفا من المقرطسين (١) شرع الجنود - أول ما طلع النهار - يعملون في جندلة الأشجار . وفي نحو الساعة الثامنة أخذ يرتفع الضباب الذى خالط الدخان تعطره الأغصان الندية الخضراء التى (٢) تهشش وتنشقق فوق النيران الموقدة ، وبدأ الخطابون (٣) - الذين حتى تلك اللحظة لم تبلغ آفاق رؤيتهم إلى خمس خطوات بل سمع بعضهم بعضا ليس غير - بتبيين النيران الموقدة والطريق من خلال الغابة تسدها الأشجار الجندلة . وطققت الشمس تبدو بقعة لامعة بين الضباب وتختفى لحظة أخرى .

وكان بولتوريتسكى وملازمه العسكري تيخونوف وضابطان من السرية الثالثة وبارون فريزى (وهو ضابط سابق في الحرس وزميل لبولتوريتسكى عندما كان طالبا في الكلية الحربية ثم جرد من رتبته العسكرية لاشتراكه في مبارزة) كان أولئك جميعا يجلسون على أروم الشجر المقطوعة في المر الذى يبعد بعض البعد عن الطريق . وانتشرت على الأرض من حولهم قطع من الورق (كانت تحوى طعاما) وأقباغ لفائف التبغ وزجاجات فارغة . وتناول الضباط بعض الفودكا وأخذوا الآن يأكلون ويشربون البورتر (٤) ، وكان طبال سبيل فض الزجاجة الثالثة .

وكان بولتوريتسكى - وأن لم ينل قسطا كافيا من النوم - في تلك الحالة القريبة من الزهو والحبور الرقيق المتراخي التى يستشعرها عندما يجرد نفسه بين جنوده ومع رفقاته حيث يحتمل الخطر . وكان الضباط يتحدثون في حرارة حديثا موضوعه النبا الأخير وهو وفاة القائد سلبتسوف . ولم ير أحدهم في هذه الوفاة أهم لحظة في الحياة وهى نهايتها وعودها إلى المنهل الذى صدرت منه

(١) المقرطس الرجل السديده الرماية . من قرطس أصاب القرطاس أى الغرض .

(٢) هشش : صات .

(٣) الخطاب الذى يقطع الأشجار .

(٤) خمر من شعير منبت كشمير البيرة ..

وانما راوا جسارة ضابط شهيم ينقض على الجليلين وسيفه بيده
ويشخن فيهم مستيئسا .

ومع أنهم جميعا (ولا سيما من كان منهم قد مارس الحرب)
يعلمون (ولم يكن في وسعهم الا يعلموا) ان المناجزة بالسلاح الأبيض
في تلك الأيام بالقوات (وفي أي مكان وزمان آخرين) في الواقع ،
كالتى تصورها ويصورها لا يتأتى لها ان تحدث بتاتا . وإذا تاتي
اطلاقا حدوث مناجزة بالسيف والرمح فانما يأخذ السيف اولئك
الذين يفرون ، اقول مع أنهم جميعا يعلمون ذلك فان خرافة المناجزة
بالسلاح الأبيض أصبحت عليهم ذبذبة الزهو الهادى والابتهاج وهم
جالسون على أزوم الشجر المقطوعة ، بعضهم قد استخفه الطرب
وبعضهم - على عكس ذلك - قد بدت عليه سيما التواضع ، واخذوا
يشربون ويمزحون دون ان يفكروا في الموت الذى قد يباغتهم في اية
لحظة كما باغت سلبتسوف ، وفي وسط كلامهم (كانما يراود توكيد
ما توقعوه) سمعوا الى يسار الطريق صوت طلقة بندقية المثير المفرح
وصفرت رصاصته صفرا مطربا في مكان ما من الجو المشبع بالضباب
وطارت مارة بهم وانفجرت داخل شجرة .

وهتف بولتوريتسكى بصوت ملؤه السرور : « هلو ! هذا في
حدودنا » واستدار الى فريزى : « والان ياكوستيا ، والان فرصتك !
عد الى السرية ، وساقود انا السرية باكلمها لتدعيم النطاق (ا)
وستجهن معركة ستكون غاية في البهجة . وبعد ذلك تقدم تقريرا » .
ووثب فريزى على قلميه وأسرع الخطو صوب البقعة التى
يشاها الدخان حيث خلف سريته .

وجىء الى بولتوريتسكى بفرسه الصغير الارقش (كمبردا) فركب
وسحب سريته وقادها صوب الاتجاه الذى اطلقت منه الرصاصتان .
وكان مركز الطلبة يقع على تخوم الغابة قالة منحدر الأخدود
الكتشوف وكانت الريح تهب في اتجاه الغابة ولم يكن مستطاعا رؤية
منحدر الأخدود وحسب ، بل كان جانبه المقابل يرى في جلاء تام
كذلك . ولما صعد بولتوريتسكى راكبا الى الخط خرجت الشمس من
خلف الضباب . وامكن رؤية فرسان قليل عديدهم على جانب
الأخدود الآخر قرب حدود غابة ناشئة على بعد ربع ميل . وكان
هؤلاء هم الششنيون الذين تعقبوا الحاج مرادا وابتعدوا رؤيته وهو
يلقى الروس . اطلق واحد منهم صوب الخط ورد عليه بطلقاتهم جنود

(١) النطاق ما يسمى بالكرودون ..

١٠٠ ، وانسحب الششنيون ووقف اطلاق النار .

ومع ذلك قلما اقترب بولتوريتسكى وسريته اصغر امرا بالاطلاق
النار ، ولم تكلم الكلمة طماع حتى بدت على طول خط القرطسين
بمعهم قفعة بنادقتنا الطردة البهجة الثيرة تصحبها سحابات من
الدخان صغيرة جميلة متداوية . ولما كان يسر الجنود ان يصيبوا بنض
السيلة سارعوا الى ان يحشوا بنادقتهم والى ان يطلقوا الرصاصه طر
الاخرى . والظاهر ان الششنيين سرى فيهم شعور الاستلثة فتواتبوا
الى امام : الواحد في اثر الواحد واطلقوا على رجالنا بضع رصاصات
اسابت احداها جنديا هو اقديف نفسه الذى رقد في الكمين فى
الليلة الماضية .

وعندما ذنا رفاقه منه كان منبطحا يمسك معدته الجروحة بكلتا
يديه يهدد نفسه بحركة اعقابية ويثن في هواده ، وكان من سرية
بولتوريتسكى ، ولما رأى بولتوريتسكى شرفة من جنده متجسدة ركب
الهم .

قال بولتوريتسكى : « ما خطبك يا فتى ! اصبت ؟ واين ؟ » .
فلم يجب اقديف .

وقال جندى كان مع اقديف : « كنت على وشك ان احشوا سلاحى
ايها الشريف واذا بى اسمع طلقة ، وطلت فوجئت بندقية قد
سقطت » .

فطقق بولتوريتسكى لسانه وقال : « تت ، تت ، هل تؤلك
الما شهيدا يا اقديف ؟ » .

- « انها لا تؤلنى ولكنها تمنى الموتى . والان . قطرة من القودكا
ايها الشريف ! » .

واستحضر بعض القودكا (او بالاحرى الكحول الذى يشربه
الجندى) وتناول باتوف وهو شديد النجهم اقديف غطاء آتية من
سفيح مترا ، وحاول اقديف ان يشربه ولكنه اعاد النطاء من
نوره .

وقال : « ان نفسى لتعافى ، اشربه انت » .

وجرح باتوف الكحول حتى الثمالة .

وحاول اقديف النهوض ولكنه هوى من فوره الى خلف . فسطروا
عظاقا وارقدوه عليه .

وقال الصول لبولتوريتسكى : « امير الاى قدام ايها الشريف » .
فاجب بولتوريتسكى : « حسن ، واذا ن قهل لك ان تلاكه ا » .

ولوح بسوطه وركب وخب به الجواد خبياً سريعاً ليلى
فورونتسوف .

وكان فورونتسوف راكباً فرسه الخصى الإنجليزي الأصيل
الكستنائي يرافقه ملازم من القوزاق ومترجم ششنى .

وسأله فورونتسوف : « ماذا يدور هنا ؟ » .
فاجاب بولتوريتسكى : « جماعاة مناوشة حملت على خطنا
الأممى » .

« لا عليك ، لقد دبرت بنفسك الأمر جميعاً ! » .
فقال بولتوريتسكى باسم : « كلا كلا أيها الأمير ، أنا لم ادبر
شيئاً .

« لقد تقدموا هاجمين من تلقاء أنفسهم » .

« سمعت ان جندياً جرح ؟ » .

« أجل ، يا للأسف الشديد ، انه جندى طيب » .

« هل جرحه خطر ؟ » .

« خطر فيما اعتقد ... في المعدة » .

وسأل فورونتسوف : « او تعلم الى أين اذهب ؟ » .

« لا علم لى بذلك » .

« اسمع ان تحزراً ؟ » .

« كلا » .

« اذعن الحاج مراد ونحن الآن ذاهبون لقائه » .

« أنت لا تعنى ان تقول هذا ؟ » .

فقال فورونتسوف وهو يكتف فى ابتسامة سروره : « جاءني رسوله
أمس . وسيكون هو فى انتظارى لقاء معر شالين بعد دقائق معدودات
صف الرماة حتى الممر ثم تعال والحق بى » .

قال بولتوريتسكى . « مفهوم » ورفع يده الى طاقيته وركب وقفل
راجعا الى سريته . وتقدم بنفسه الرماة الى الجهة اليمنى وأمر
الضول ان يحدو حذوه فى الجهة اليسرى .

وفى هذا الوقت ذاته أعاد بعض الجنسد أفديف الجريج الى
الحصن .

ولحظ بولتوريتسكى خلفه وهو فى طريق العودة فرسانا عددين
بلحوقن به وكان يتقدمهم على مرس أبيض العرف رجل مهيب الطلعة
عليه عمامة وحمل أسلحة عليها زخارف ذهبية ، وكان هذا الرجل
الحاج مرادا .

ودنا من بولتوريتسكى وقال له شيئاً باللسان التترى . ورفع
بولتوريتسكى حاجبيه وادى بذراعيه حركة فحواها انه لم يفهم ثم

ابتسم وبادله الحاج مراد ابتسامة بابتسامة ، واسترعت هذه
الابتسامة نظر بولتوريتسكى بحناها الذى يحاكى حنان الأطفال لانه

لم ينتظر قط ان يرى الزعيم الجبلى الرهيب يبدو هكذا . لقد توقع
ان يرى رجلاً شكسا حاد القسسمات فاذاً به امام نذب (1) له

ابتسامة ذات حنان جعلت بولتوريتسكى يستشعر كأنه من معارفه
القدامى . وكانت له خاصية وحيدة : وهى عيناه اللتان ركبت كل

منهما بمنأى عن الأخرى واللذان تنفرسان من تحت حاجبيهما
الأسودين فى عيون الآخرين فى هدوء وبقظة ونفاذ .

وكانت حاشية الحاج مراد خمسة رجال ، بينهم خان محمد الذى
وفد ليرى الأمير فورونتسوف فى تلك الليلة ، وكان فتى مستدير

الوجه وله عينسان سوداوان لا اهداب لهما ، مشرق الديباجة
ممتلئة النفس فرحاً بالحياة . وبينهم أيضاً آفار حنقى وهو رجل

مكتنز أرب (2) يلتقى حاجباه وقد عهد إليه الحاج مراد بالقيام على
امتعته كافة ، وكان يقود فرسا من الخيل التى يعنى بها للانتاج ،

يجعل خرقة (3) أحكمت تعبئتها . ولفت الأنظار من الحاشية بصفة
خاصة رجلاً : الأول من لسفيا - وهو فتى عريض المنكبين غير انه

نحيل الخصر كالمرأة ذو عينين تعدلان عيني الحمل جمالاً ومبادئ
لحية بنية اللون ، وكان هذا الدار . والثانى جمزالو - وهو ششنى

ذو لحية حمراء قصيرة ، ليس له حاجبان ولا اهداب ، قد ذهب
نور عينيه ، وفى أنفه ووجهه ندبة (4) واشار بولتوريتسكى الى

فورونتسوف الذى ظهر توا فى الطريق . وركب الحاج مراد
ليلقاه ، ووضع يده اليمنى على قلبه وقال شيئاً باللسان التترى

وتوقف . وترجم الترجمان الششنى .
قال : « يقول : اسلم نفسى لمشيئته وأرغب فى خدمته . وقد
وددت ان أقوم بهذا منذ زمن طويل ولكن (شامل) لم يردن على ان
أفعل ذلك .

فلما سمع فورونتسوف ما قاله الترجمان مد يده فى قفازها
المصنوع من جلد الفزال الى الحاج مراد الذى نظر اليها لحظفة

- (1) النذب : الطريف الغليظ الظل أو العرمة .
- (2) الأرب : الكثير شمر الوجه والأذنين .
- (3) الخرقة : بكسر فسكون ، جمع خرقة .
- (4) الندبة : بفتح فسكون ، اثر التحام الجرح .

وأضاف وهو يستدير نحو أقرب جندي ويخرج الكلمات على مهل
 لهجته الإنجليزية: « تعرف من هذا ؟ » .
 - « كلا يا صاحب السعادة » .
 - « الحاج مراد ... سمعت عنه ؟ » .
 - « كيف لم نسمع عنه يا صاحب السعادة ؟ لقد هزمنا كثيرا ! » .
 - « أجل ، ولقينا منه متاعب جمّة كذلك » .
 - « نعم ، هذا حق يا صاحب السعادة » بهذا أجاب الجندي
 مفتبطا . بأن يحدث رئيسه « .
 وفهم الحاج مراد أنهم كانوا يتحدثون عنه فابتسم بعينه
 ابتسامة مشرقة .
 وعاد فورونتسوف إلى الحصن وهو أشد ما يكون ابتهاجا .

في تردد ثم ضغطها ضغطا شديدا وقال شيئا مرة أخرى ، ونظر إلى
 المترجم أول الأمر ثم إلى فورونتسوف .
 - « يقول أنه لم يرد أن يسلم نفسه لاحد غيرك لأنك ابن السردار
 ولأنه يحترمك كثيرا » .
 فأوما فورونتسوف برأسه ليعرب عن شكره . وقال الحاج مراد
 شيئا من جديد مشيرا إلى حاشيته :
 - « يقول أن هؤلاء الرجال - وهم حاشيته - سيخضعون الروس
 كما سيخضعهم » .
 فاستفاد فورونتسوف صوبهم وأوما برأسه اليهم كذلك . وأوما
 أيضا إلى الشئني الطروب ذي العينين السوداوين الخاليتين من
 الأهداب (خان محمد) وقال شيئا أغلب الظن أنه مضحك
 لأن آفان الأرب استدرج شفقيه إلى ابتسامة مبيّنا عن استنائه التي
 تحاكي الحاج بياضا . ولكن العين الوحيدة الحمراء لجمز الوذي
 الشعر الأحمر رمقت فورونتسوف رمقة عابرة ثم تركت من جديد
 على أذني فرسه .
 ولما ركب فورونتسوف والحاج مراد مع بطانتهمسا عاتدين إلى
 الحصن تجمع الجنود الذين أطوا من الخطبوط شرادم وأبدوا
 تعليقاتهم الخاصة .
 - « أي عدد وثير من الرجال أفنى هذا الفتى اللعون ! فانتظر الآن
 مع ذلك أي شأن خطر يبطونه له ! » .
 - « طبعي . لقد كان يد شمل اليمنى . والآن - زال الخوف » .
 - « غير أنه لا سبيل إلى الإنكار رغم هذا بأنه فتى مهذب - أنه
 شهم وفارس مغوار لا يلحق (١) » .
 - « الرجل الأحمر ! أنه ينظر شزوا كالوحش ! » .
 - « أوخ ! لابد من أن يكون شزوا ! » (٢) .
 ولحظوا كلهم الرجل الأحمر بصفة خاصة .
 ومن المكان الذي كان يجري فيه تقطيع الأشجار جرى الجنود
 الأقرين إلى الطريق ليتفرجوا ، وصرخ فيهم ضابطهم ، إلا أن
 فورونتسوف منعه .
 - « دعهم يلقون نظرة على صديقهم القديم » .

(١) في الأصل Dabigh والزيفيت بين التشينيين كالشهم من اليهود ، غير
 أن الكلمة تتصل اتصالا وثيقا بفكرة الروسية المرزة .
 (٢) الضارب بكسر فسكون كلب الصيد ومنها « الضاري » .

الى القائد الذى يتولى قيادة الجناح الايسر (وهو القائد كوزلوفسكى فى جروزنى) وكتابا الى والده اسرع فورونتسوف الى المنزل خشية من تعصب زوجه منه لانه فرض عليها هذا الغريب الرهيب الذى تنبى له معاملة « خالية » من الاساءة ، ولكنها مع ذلك ليست بالغة الزرق غير ان مخاوفه لم تكن فى محلها ، فقد كان الحاج مراد جالسا فى كرسى ذى متكا (وبولكا الصغير ابن زوج فورونتسوف على ركبته) يصفى فى انتباه - وراسه مائل - الى المترجم الذى كان يترجم له كلمات مارية فاسيلفنة الضاحكة . وكانت هذه تقول له بأنه ان ظل يهدى اخاه فى العهد كل ما يروق مما فى يده فسيطوف عما قريب على غرار آدم .

وعندما دخل الأمير نهض الحاج مراد من فوره - وفاجأ بولكا وضايقه برفعه من فوق ركبته - ثم استبدل بالتعبير اللداعب الذى على وجهه تعبيرا آخر جهما زريتا . ولم يجلس ثاتية الا بعد ان انتهى فورونتسوف من الجلوس .

وجلوب مارية فاسيلفنة وهو يتم حديثه معها بان فى شرعة قومه ان أى شىء يعجب به اخوك فى العهد ينبى ان يهدى اليه .

« ابنك يا اخا العهد ! » قال هذا بالروسية وهو يسمح رأس الصبى الجعد الشعر الذى عاد فتسلق ركبته .

وقالت مارية فاسيلفنة لزوجها بالفرنسية : « ان لصك لدهش ! » اعجب بولكا بخنجره فأعطاه اياه .

وارى بولكا اباه الخنجر ، فأضافت بالفرنسية : « هذا شىء ذو قيمة » .

فقال فورونتسوف بالفرنسية : « يجب ان تترقب فرصة تقدم له فيها هدية » .

وجلس الحاج مراد - غاضبا طرفه - يمر بيده على شعر الصبى الجعد وهو يقول بالترتية : « شهم مفوار ، شهم مفوار » .

وقال نورونتسوف وهو يستل النصل المرهف ذا الحافة تحت منتصفه : « خنجر جميل جميل ، اشكر ! » .

وقال للمترجم : « استفهم منه عما يسعنى ان اصنع له » .

- ٦ -

سر فورونتسوف الشاب سرورا عظيما انه - لا غيره - هو الذى كسب واستقبل الحاج مرادا اعدى اعداء روسيا واكثرهم نشاطا بعد شامل . ولم يكن حول هذا الأمر ما يكدر الا شىء واحد : وهو ان قيادة الجيش فى فوزد فيزهتك انعقدت للقائد مللر زاكوميلسكى وكان ينبى ان يجرى الأمر جميعه عن طريقه . ولما كان فورونتسوف قد أجرى كل شىء بنفسه دون ان يبلغه اليه فرمبا يشير ذلك شيئا من الخلاف ، وكادت هذه الفكرة تشوب سروره . فلما بلغ بيته عهد ببطانه الحاج مراد الى ملازم الفرقة وقاد بنفسه الحاج مرادا الى داخل المنزل .

واستقبلت الاميرة مارية فاسيلفنة (الايقة الباسعة) وابنها الصغير (وهو طفل ظريف جعد الشعر فى السادسة من عمره) الحاج مرادا فى غرفة الجلوس : ووضع الأخير يده على قلبه وقال فى وفار - عن طريق المترجم الذى دخل معه - انه يعتبر نفسه اخا فى العهد للامير منذ انزله فى بيته وان اسرة أخى العهد جميعها معدسة مثله تماما .

وقد اعجب مارية فاسيلفنة هيئة الحاج مراد وسلوكه . وزاد انمطافها اليه انه احمر وجهه عندما مدت اليه يدها الرحبة البيضاء . فدعته الى الجلوس ، وبعد ان سألته . هل يشرب القهوة قدمت له شيئا منها ولكنه أمسك عنها عندما احضرت . وكان يفهم الروسية شيئا ما ولكنه لم يستطع ان يتكلمها . وكان يتبسم كلما قيل شىء له يفهمه . وكانت ابتسامته تروق مارية فاسيلفنة كما تروق بولتوريتسكى . اما الصبى الصغير (الجعد الشعر ذو العينين الثاقبتين الذى كانت امه تدعوه بولكا) فقد وقف الى جوارها ولم يحول نظره عن الحاج مراد وقد سمع الناس يصفونه دواما بأنه محارب عظيم .

وترك فورونتسوف الحاج مرادا مع زوجته وذهب الى مكتبه ليقوم بما ينبى نحو ابلاغ حادث مجيئة الى الروس . وبعد ان كتب تقريرا

وترجم المترجم فأجاب الحاج مراد من فوره بأنه لا يرغب في شيء ،
ولكنه يرجو أن يقاد الى مكان يستطيع أن يؤدي فيه الصلاة .

ونادى فورونتسوف وصيفه وأخبره بأن يعمل بما يريد الحاج
مراد .

ولم يكده الحاج مراد يخلو الى نفسه في الغرفة التي خصصت له
حتى تبذل وجهه ، فاخفى التمبر الرضا ، الرقيق آونة المهيب
أخرى ، وبرزت نظرة قلق . لقد لقيه فورونتسوف أحس بكثير مما
قدر ولكن كلما حسن اللقاء قلت ثقة الحاج مراد في فورونتسوف
وضباطه . انه ليخاف كل شيء : أن يقبض عليه ويصفد (1) ويرسل
الى سيبيريا أو يكفى بقتله ، وعلى ذلك أخذ حلده . وسأل الدار -
عندما دخل هذا الأخير - أين وضع مرادوه وهل تزع عنهم سلاحهم
وأي الخيل . فقرر الدار أن الخيل في اصطبل الأمير وأن الرجال
أودعوا الأبنار (2) وأنهم استبقوا سلاحهم وأن المترجم يقدم لهم
الطعام والشاي .

وهز الحاج مراد يده في شك . وبعد أن خلع ملابسه صلى
وقال للدار أن يجيئه بخنجره الفضي . ثم ارتدى ملابسه وشد
حزامه وجلس على (الديوان) - ورجلاه مطويتان تحته - يترقب
ما عسى أن ينزل به .

وفي الرابعة بعد الظهر جاء المترجم يدعوه الى أن يتفلى مع
الأمير .

ولم يكده يأكل في غلاكه شيئاً غير الأرز الذي تناوله من الطبق
بل من المكان ذاته الذي تناولت منه مارية فاسيلفتة نفسها .

ولاحظت مارية فاسيلفتة لزوجها : يخاف أن نسمعه ، ولذا
ناول نفسه من المكان الذي تناولت منه نفسى ، ثم استدارت توا صوب
الحاج مراد واستفهمت منه عن طريق المترجم عن موعد صلاته التالي :

فرفع الحاج مراد خمسة أصابع وأشار الى الشمس : « يحين الميقات
بعد برهة بسيرة » . وسحب فورونتسوف ساعته وضغط على زميرك
فدقت الرابعة والرابع .

(1) صفده « من يلب ضرب » : اولفه وهدم بالحديد أو غيره .

(2) الثير كالثير وجسمه الأبنار : مغزن الحاصلات الزراعية الذي يسوته « شوتة » .

ودعش الحاج مراد بالطبع وسأل أن يسماها من جديد وان يؤذن
له في النظر الى السلطة .

فقالت الاميرة لزوجها بالفرنسية : « هالك الفرصة ، اعطه
الساعة » .

وفي الحال قدمها فورونتسوف الى الحاج مراد .

ووضع الأخير يده على صدره واخذ الساعة . ولمس الزميرك مرات
عديدة مصفياً ولطرق رأسه موافقاً .

وبعد الغداء أعلن حضور ياور ملر زاكو ميلسكى .

واعلم الياور الأمير بأن القائد - وقد سمع بوصول الحاج مراد -
استاء أشد الاستياء لأن هذا لم يبلغ اليه ، وقضى بأن يرسل اليه دون
إبطاء . فأجاب فورونتسوف بأن أمر القائد واجب الطاعة ، وأبلغ
هذه الأوامر - عن طريق المترجم - الى الحاج مراد وطلب اليه أن
يذهب بمحبتة الى ملر .

ولما سمعت مارية فاسيلفتة سبب حضور الياور فهمت توا أن
سوء تفاهم قد ينشأ بين زوجها والقائد فقررت - رغم كل محاولات
زوجها أن يتنهد عن ذلك - أن تذهب معه ومع الحاج مراد .

(بالفرنسية) « خير لك أن تبقى ، وهذا شائئ لا شائك ... » .

(بالفرنسية) « ليس في مقصودك أن تمنعني من اللهاب لزوجة
زوج القائد » .

- « يسطك ان تلحبي في وقت آخر » .

- « ولكنى أريد أن أذهب الآن ! » .

ولما لم يكن يد من التسليم وافق فورونتسوف وذهب ثلاثتهم
جميعاً .

ولما دخلوا قناد ملر في ادب يقبض النفس مارية فاسيلفتة الى
زوجه وقال لياوره أن يدخل الحاج مراد غرفة الاستقبال والأ يذعه
بخرج حتى يصلو اليه أوامر جديدة .

وقال لهورونتسوف وهو يفتح باب مكتبه ويدعو الأمير الى الدخول
قله : « تفضل ... » .

الردىء خير من الخصام الجيد !) ... أوه يا عزيزتى ما هذا الذى أقوله ؟ » وضحكت .

وسلم القائد الغاضب لضحكة الحسناء الساحرة ، وترددت ابتسامة تحت شاربه .

وقال فورونتسوف : « اعترف باننى أخطأت ولكن ... » .

فقال مللر : « وأنا أيضا خرجت عن طوقى » - ومد يده الى الأمير .

وعقد الصلح من جديد ! وتقرر ترك الحاج مراد مع القائد مؤقتا ثم إرساله الى قومندان الجناح الأيسر .

وجلس الحاج مراد فى الغرفة المجاورة ، ورغم أنه لم يفهم ما قيل فإنه أدرك ما لزم أن يدرك . ذلك أنهما كانا يتجادلان فى أمره ، وأن هجره شاملا أمر بالغ الأهمية للروس ، وأنهم من أجل هذا لن يكتفوا بعدم نفيه أو قتله وحسب بل سيكون فى وسعه أن يطلب إليهم الكثير . وفهم أيضا أن نفوذ مللر زاكوميلسكى - رغم أنه الضابط الذى يباشر القيادة - لا يعدل نفوذ مرءوسه فورونتسوف ، وأن فورونتسوف كان ذا خطر ومللر زاكوميلسكى غير ذى خطر ، وبناء على هذا فعندما أرسل مللر فى طلبه وأخذ يستجوبه أظهر الحاج مراد كبرياء وترفعاً قائلاً أنه أتى من الجبال ليخدم القيصر الأبيض وأنه لا يقدم حساباً لغير السردار - يعنى القائد العام الأمير فورونتسوف (الكبير) فى تفلېس .

ولما دخل المكتب توقف تلقاء فورونتسوف وقال له دون أن يدعوه الى الجلوس :

- « أنا القائد هنا ، وعلى هذا فكل المفاوضات مع العدو ينبغي أن تجرى عن طريقى ! فلماذا لم تبلغنى أن الحاج مرادا قد وصل ؟ » .

فاجاب فورونتسوف وقد أخذ وجهه يشحب من الاستفزاز متوقفاً أن يسمع من القائد الغاضب بعض التعبيرات القاسية وقد أصابته فى الوقت نفسه عدوى الغضب : « جاءنى رسول وأعلن رغبته فى التسليم لى وحدى » .

- « أنا أسالك لماذا لم أحظ علماً ؟ » .

- « كان فى نيتى أن أخبرك يا أيها البارون ولكن .. » .

- ليس لك أن تنادىنى بـ (يا أيها البارون) وإنما بـ (يا صاحب السعادة !) . وهنا انفجر فجأة غيظ البارون المكظوم ونطق بكل ما كان يضطرم فى نفسه منذ وقت طويل :

- « أنا لم أخدم مليكى طوال سبعة وعشرين عاماً لكى يأتى رجال مدعوا خدمتهم أمس - مستندين الى اتصالات الأسرة - ويصدروا أوامره تحت أنفى بالدات فى أمور لا شأن لهم بها ! » .

فاعترض فورونتسوف : « أسالك يا صاحب السعادة الا تنفوه بأشياء ليست صحيحة ! » .

فقال القائد وهو أكثر انفعالا : « إنما أقول ما هو صحيح ، ولن أسمع ... » .

وفى تلك اللحظة دخلت مارية فاسيلفنة ولأرفالها (1) حفيف تتبعها سيدة صغيرة متواضعة الهيئة وهى زوج مللر زاكوميلسكى .

فبدأت مارية فاسيلفنة : « رويدك رويدك أيها البارون ! لم يقصد سيمون أن يسئ إليك » .

- « لست أتكلم فى هذا إيتها الأميرة ... » .

- « حسنا حسنا ، فلننس الأمر برمته ... وأنت تعلم أن (الصلح

(1) الرغل بكسر سكون : النصف الاسلملن ثوب المرأة .

وكانت هذه ندبات تخلفت عن الجذ الذي عوقب به أفديف لقله المال الذي جرمه .

وقلب أفديف من جديد وسبر الطبيب معدته وقتا طويلا ووجد الرصاصة ولكنه عجز عن استخراجها ، فوضع على الجرح ضمادا (1) والصق عليه لزاقا وأنصرف . على أن أفديف رقد طوال الوقت الذي كان الطبيب فيه يسبر الجرح ويضمده يطبق أسنانه ويغمض عينيه ، ولكنه بعد أنصراف الطبيب فتحتهما وتطلع من حوله كأنه دهش . ودار بعينه على المرضى الآخر وعلى (مراسلة) الجراح وان بدا أنه لا يراهم وإنما يرى شيئا آخر ييلفته .

ودخل صديقه بانوف وسروجن ، إلا أن أفديف ظل يرقد في الوضع نفسه ناظرا أمامه في دهشة ، واتقضى وقت طويل قبل أن يميز زميله وان شخصت عيناه إليهما رأسا .

قال بانوف : « اسمع يا بطرس ، اليست لديك رسالة تود أن ترسلها إلى ذويك ؟ » .

ولم يجب أفديف وان حدى بصره في وجه بانوف .

« فأعاد بانوف ثانية وهو يمس يد أفديف المريضة المظلم الباردة : « أقول ، اليست لديك طلبات ما تيلفها للذويك ! » .

وبدا أن أفديف يستفيق .

— آه ... بانوف ! » .

— « نعم أنا هنا ... لقد جئت ! اليس عندك شيء تيلفه إلى ذويك ؟ »

فسيكتب سروجن خطابا » .

« قال أفديف وهو يحسرك عينيه في صعوبة صوب سروجن :

— « سروجن ، أكات أنت ؟ .. اذن فأكتب هكذا ، قل : (ولذك بطرس اصدر أمرا بأن يطول بقولكم (2) وأنه يحسد أخاه) ..

أخبرتكم اليوم بهذا .. (وهو شخصيا جد سعيد الآن فلا تنزعجوا من أجله ... دعوه يعيش ، وليهبه الله عمرا مدينا . أنا مفتيط)

أكتب هذا » .

وبعد أن قال ذلك صمت بعض الوقت وعيناه تتركزان على بانوف .

(1) ضميد « من باب فتح ونصر » الجرح وضع عليه الضميد بكرة ففتح وهو القماش الذي يشه عليه . أما « اللزاق » التي يمسها فهو ما يسمونه باللزقة .

(2) تغيير شميمي معناه أن مرسل الرسالة قد توفي فعلا .

بانوف .

(1) حوله وطعوا به « بتشديد الفاء المسجورة » : أحاطوا به أو طوقوه .

(2) حملة يفتح الميم جمع خمل .

(3) حصن بكسرة تشدده خضرة .

(4) الطوقان : المتصران أو بيت الكلابى .

- ٧ -

قل أفديف الجرح إلى المستشفى (وهو مبنى خشبي سقفه ألواح ، مكانه عند مدخل الحصن) ووضع على أحد السرور الخالية بالقسم العام . وكان هذا القسم يضم أربعة من المرضى : واحدا مصابا بالتيفوس وحرارته عالية - وآخر شاجبا تحت عينيه ظلال قاتمة وفيه تشعيرية ، وكان يتوقع نوبة أخرى ويتشاب وتلقوبا متصلا - والثنين غيرهما جرحا في غلوة منذ ثلاث أسابيع ، أحدهما في يده وكان واقفا والثاني في كتفه وكان جالسا على سرير . وباستثناء للمرضى يلتفخوس حنوا (1) جميعهم القدام الجديدين والذين جفوا به ووجهوا بهم الأسئلة .

فقص أحد الحملة (2) : « يلقون النار أحيانا كأننا بقون عليك حصنا (3) فلا يحدث شيء ... وفي هذه المرة لم يلق إلا نحو خمس رصاصات » .

— « يدرك كل امرئ ما يرسله له القدر ! » .

« آه » وتأوه أفديف في صوت عال محاولا أن يسيطر على الألم عندما يبدوا يضعونه على السرير .

ولكنه أسماك عن الأئين عندما صار فوقه ولم يزد على أن يوالى تعقيب وجهه وتحريك قدميه ، وأبقى يديه فوق جرحه وركز نظره أمامه .

وجاء الطبيب وأمر بتقليب الجرح على وجهه ليرى هل اخترقت الرصاصة ظهره .

وأستهم : « ما هذا ؟ مشرا إلى الندبات البيضاء التي تتقاطعت على ظهر المريض وحقوقه » (4) .

فأجاب أفديف وهو يئن : « حدث هذا منذ زمن طويل يا حضرة المحترم ! » .

(1) حوله وطعوا به « بتشديد الفاء المسجورة » : أحاطوا به أو طوقوه .

(2) حملة يفتح الميم جمع خمل .

(3) حصن بكسرة تشدده خضرة .

(4) الطوقان : المتصران أو بيت الكلابى .

وسال فحاة: « و هل وجدت غليونك ؟ » ولم يجب بانوف .
 فردد أفديف : « غليونك ... غليونك ! أعنى ، هل وجدتته ؟ »
 - « كان في حقيبتى » .
 فقال أفديف : « تماما ! .. حسنا ، والان أعطنى شمعة أحملها ..
 ساموت » .

- ٨ -

في اليوم الذى توفى فيه بطرسس أفديف فى المستشفى
 بفردفزهنسك كان يدرس الشوفان على ارضية الدراس المتجمده
 من الصقيع أبوه المعجوز مع زوج الأخ الذى تطوع بطرس فى الجندية
 بدلا عنه ومع ابنة ذلك الأخ التى ناهزت الأثونة وكادت تبلغ سن
 الزواج .

وكان قد نزل فى الليلة السابقة تلج غزير تبعه قرب الصباح
 صقيع قاس . واستيقظ الرجل المعجوز عند صياح الدبكة المرة الثالثة
 ولما رأى ضوء القمر الزاهى من خلال الواح زجاج النوافذ نزل من
 فوق القرن وليس حذاه وسترته المصنوعة من فراء الغنم وطاقتيه
 وذهب الى ارضية الدراس وبعد ان اشتغل هناك ساعتين عاد الى
 الكوخ وأيقظ ابنه والمرأة . وعندما ذهبت المرأة والفتاة الى ارضية
 الدراس وجدتا ان ما عليها قد تم حصده بمجرقة خشبية مستقرة
 فى الثلج الأبيض اليابس ، وكان الى جانبها مكانس من شجر التنبولا
 اغصانها الى أعلى وصفان من بكر الشوفان ملقى متماس السنبال
 سطرا طويلا على طول ارضية الدراس جميعها . فاختاروا مضاربهم
 وبدعوا الدراس منسقين ضربهم الثلاثى . وكان الرجل المعجوز يضرب
 فى قوة بمضربه الثقيل مقطعا القش ، والفتاة تضرب السنبال من
 اعلاها ضربات منتظمة ، وزوج الابن تقلب الشوفان بمضربه .
 وافل القمر وأخذ الفجر بطلع ، وكانوا فى سبيل صف البكر حين
 انضم اليهم فى الدراس الولد الأكبر (حكيم) فى فروته القنمينة
 وطاقته .

فصاح أبوه به مستأنيا فى عمله مستندا الى مضربه : « فيم
 تتسكع متواكلا ؟ » .

- « كانت الخيل فى حاجة لأن يفحص عنها » .
 فردد الوالد مقلدا أباه ساخرا منه : « خيل يفحص عنها !
 ستعنى المرأة المعجوز بها .. خذ مضربك ! انك تزداد بدانة أيها
 السكر » .

وتمتم الابن : « هل تنفق على ! » .

قال الرجل المجسوز وهو يقطب في تجههم ويفوت ضربه .
 - « ماذا ! »
 وتناول الولد مضربه في صمت ، وبدعوا اللداس بمضارب
 أربعة .
 وصار المضرب الثقيل للرجل المجسوز يهبط في اثر الثلاثة
 الآخر : « تراك ، تتام ... تراك ، تتام ... تراك ...
 - « حسنا . لك قفا كافية السادة الأماجد ! »
 - « انظر الى ، ان سراويلي لا تكاد تجد شيئا تتعلق به » . هكذا
 قال الرجل وقد فوت ضربه الا أنه هز مضربه في الهواء حتى يتخلف
 عنهم .
 وانعوا الصف واخذت المرأة ترفع القش بالمجرقة .
 - « كان بطرس أحقق عندما ذهب بدلا عنك ، وكان عليهم في
 الجيش ان يصلحوا حالك ولقد كان يعدل في المنزل خمسة من
 أمثالك ! »
 فقالت زوج الابن وهي تلقي جانبها العصاب التي تخلفت عن
 البكر : « كفى يا أبت » .
 - « نعم ، فانا اطعم سنتكم ولا اطفر بعمل ما من ايكم ! لقد اعتاد
 بطرس ان يقوم بعمل رجلين ولم يكن مثل ... »
 واتت زوج العجوز من البيت على طول الجمر المطروق ، والثلج
 المتجمد يصر تحت الحذاءين الحديديين الصنوعيين من لحاء (1) الشجر
 اللدبن لستهما فوق عصاب رجلها الصوفية اللقوفة لفا مطبقا .
 وكان الرجال يجرفون اكداص الجيوب المدراة ، والمرأة والفتاة
 تكسنان ما تخلف .

كان هنا ، فلما تاي أصبحت لا تفنا تنكد عيشي انا ! » .
 فقالت امه في مثل ذلك الأسلوب الساخط : « يدل هذا على انك
 تستاهل ، وان تعدل بطرسا قط » .
 فقال الابن : « اوه ، فليكن » .
 - « بالتأكيد فليكن ، جرعت الاكلة وتقول الآن (فليكن) ! »
 فقالت زوج الابن : « ما فات مات ! » .
 وكان الخلاف بين الاب والابن قد بدأ منذ زمان طويل ، منذ
 اتجرط بطرس في سلك الجندية على وجه التقريب . وقد شعر الرجل
 العجوز - حتى في ذلك الوقت - بأنه استبدل بالنسر واقا . صحيح
 ان من العذل - من وجهة نظر الرجل العجوز - ان يحل رجل ليس
 له ولد محل رجل ذي أسرة ، وكان لحكيم اولاد أربعة ولم يكن لبطرس
 ولد ، ولكن بطرسا كان كثير العمل كآبيه ، بلعنا احوذنا (1) قويا
 جليدا ، ففقد كان يعمل دواما . واذا حدث ان امر يقوم بعملون مند اليهم
 يد المساعدة - كما قد يصنع ابوه - وانجر بالمتجل دورة او دورتين او
 وسوق عربة او جنفل شجرة او شفق بعض الخشب ولقد تدم الرجل
 العجوز على رحيله ولكن لم يكن من ذلك بد ، اذ كان التجند في تلك
 الأيام يعدل الموت ، والجندى كالفن المتور ، والتكبر فيه بين اهله
 كشق قلب المرء في غير طائل . وانما كان الاب يلكره في بعض
 المناسبات - كما فعل اليوم - ليخز ولده الأكبر . وكثيرا ما فكرت
 الام في ولدها الأصغر ، وطمقت منذ امد طويل - منذ أكثر من عام -
 تسأل زوجها ارسال قليل من النقود الى بطرس ولكن الرجل العجوز
 لم يكن يجيب .

فقد كان آل كورتوف أسرة مستورة ، وكان لدى الرجل العجوز
 بعض المال المدخر المخسوء ، الا أنه لم يكن ليرضى بحال ان يمس
 ما خبا . مهما يكن ، فقد اعترمت المرأة العجوز الآن - وقد سمعته
 يذكر ولدهما الأصغر - ان تسأله من جديد ان يرسل اليه رويلا على
 الأقل بعد بيع الشوفان . وهكذا فعلت ، فلم يكن الشباب يلهبون
 ليعملوا لصاحب الأرض ويخلو العجوزان كل منهما الى الآخر حتى
 اغترت على ان يرسل لبطرس رويلا من ثمن الشوفان .
 وعلى هذا فتمتاز رزم (2) ستة وتسعون بوشكلا (3) من الشوفان

(1) الاحوذى : الحائز السريع في كل ما حلفه .

(2) رزم النوى : جسمه وشبهه .

(3) البوشكلا : ميكال يتسع ل ٣٦٦ لترا .

قالت المرأة العجوز : « جاء شيخ الكتيبة وهو بأمر الجميع بان
 يذهبوا ويستغلوا لصاحب الأرض وينقلوا الطوب على العربة ...
 لقد أعددت طعام الانظار . هلموا ، الستم فاملين ! »
 فقال الرجل العجوز لحكيم : « فليكن ... أسرج الكميث (٢)
 واذهب ، والأولى بك ان تحرص على ألا تسبب لي المتاعب كما
 فعلت ذلك النهار ... ولا يسمى الا أن أسف على بطرس ! »
 ورد حكيم على الإهانة بقوله : « لقد درجت على ان تنهه عندما

(1) لها الشجرة يلهوما : قشرها .

(2) الكميث من الغيل للذكر والمؤنث ما كان لونه بين الاسود والاحمر وهو تصغيرا
 اكمت والجمع كمت بضمين .

المدرى (فى ثلاث من زحافات الجليد المبطنة بالزكائب) شبك فى عنابة بعضها الى بعض من اعلى اسياخ خشبية ، عند هذا سلمت زوجها خطابا - كان كاهن الكنيسة قد كتبه رفق املائها - ووعد الرجل العجوز بان يضمه رويلا ويرسله الى العنوان الصحيح وذلك عند بلوغه المدينة .

وارتدى الرجل العجوز فروة غنم جديدة يعلوها عطاق غزل فى البيت ، ولف حول رجليه عصاب صوفية خاصة بذلك دافئة بيضاء وأخذ الخطاب واودعه محفظة جيبية ، وردد دعاء ، وركب زحافة الجليد الامامية وساق الى المدينة ، وساق حفيده الزحافة الأخيرة . ولما بلغ الرجل العجوز المدينة سأل صاحب الفندق ان يقرأ عليه الخطاب وأصفى اليه فى انتباه وتأييد .

بدأت والدة بطرس فى خطابها برسالة بركانها اليه ثم بتحيات الجميع ونبأ وفاة اشبينه (1) ، وأضافت فى النهاية ان اسكينيا (زوج بطرس) لم تشأ ان تلبث معهم وانما ذهبت لتشتغل حيث سمعوا انها تعيش عيشا مستقيما طيبا ، ثم وردت اشارة الى هدية الروبل ، واخيرا رسالة املتها المرأة العجوز - اذعانا لحزنها - والدموع فى عينيها ، قيدها كاهن الكنيسة فى دقة كلمة فكلمة : -

- « وأزيد شيئا واحدا - اى طفلى الحبيب ، اى يمامتى الحلوة ، اى صغيرى بطرس ! لقد ذرفت عيني رثاء لك يا نور عيني . لمن تركتني ؟ ... » . وعند هذه النقطة انتحبت المرأة العجوز وبكت وقالت : « بكفى هذا ! » هكذا استقرت الكلمات فى الخطاب ، ولكن لم يقدر لبطرس ان يتسلم نبأ رحيل زوجه عن البيت ولا هدية الروبل ولا كلمات امه الأخيرة . وعاد الخطاب يتضمن التقويد مع الخير بان بطرس لقي مصرعه فى الحرب « وهو يدافع عن قيصره ووطنه والملة الأرثوذكسية » - هكذا أعرب كاتب الجيش .

فلما وصل هذا النبأ الى المرأة العجوز طفقت تبكى كلما استطاعت ان تدرخ وقتا ثم تشرع فى العمسل من جديد . وفى يوم الأحد التالى مباشرة قصدت الى الكنيسة وجعلتهم يرتلون جنازا ويدرجون اسم بطرس بين اولئك الذين يصلى على ارواحهم ، ووزعت على كل الناس الطيبين قطعا من خبز القربان تذكارا لبطرس خادم الله .

بكته فى صوت عال كذلك اوملته اسكينيا عندما نعى اليها زوجها المحبوب الذى لم تعيش معه غير سنة واحدة قصيرة . وقد حزنت

(1) الاشبين : كليل المعبد ، والكلمة من الدخيل .

على زوجها وعلى حياتها التى تحطمت ، وذكرت فى عويلها خصل شعرها الحمراء الداكنة وحبه وكدر حياتها مع يتيمتها فانكا ، ولامت بطرس فى مرارة على انه أشفق على اخيه ولم يشفق عليها بتاتا - انها ستهيم مرغمة بين الأقراب .

ولكن اسكينيا فى أعماق نفسها سرتها وفاة زوجها ، اذ كانت حاملا المرة الثانية من مستخدم فى حانوت كانت تعيش معه ، ولن يكون لأحد الآن الحق فى ان يجرها ، وسيتيسر له « أن يتزوج منها » كما قال انه سوف يفعل عندما كان يفريها بالاستسلام .

بما ان ميخائيل سميتوفتش فورونتسوف هو ابن السفير الروسي فقد تعلم في إنجلترا وتوفر على تربية اوروبية فوق العادة الى حد بعيد بين الموظفين الروس في ايامه . وكان طموحا ودمنا وعرفا في معاملته مرعوسيه ورجل بلاط بمعنى الكلمة مع الرؤساء وهو لم يفهم الحياة دون سلطان وخضوع وقد حاز أعلى المراتب والأوسمة وكان ينظر اليه على انه قائد ماهر بل نابليون في كريستو (١) .

وكان في سنة ١٨٥٢ قد نيف على السبعين الا انه كان صغرا بالإضافة الى سنه . وكان نشيط الحركة وله قبل كل شيء عقل طبع محصن رضى استخدمه ليثبت سلطانه واقتداره ويزيد في حب الناس له . وكان عريض الثراء من دخله ودخل زوجه (التي كانت فيما مضى كوتيسة من أسرة براتيسكي) ذا مرتب ضخم بوصفه نائباً للقيصر ، وقد صرف جزءا كبيرا من ثروته في تشييد قصر وتخطيط حديقة على الشاطئ الجنوبي للقرم .

وفي مساء اليوم الرابع من ديسمبر سنة ١٨٥٢ وقفت زحافة مندوب امام قصره في تفليس . واجتاز الطنف الواسع ضابط متعب اسود الوجه من التراب ، ارسله القائد كوزلوفسكي نبيا استسلام الحاج مراد للروس ، دخل باسطا عضلات رجله المتصلبة لدى مروره على الديدبان . وكانت الساعة السادسة وقد هم فورونتسوف بالدخول للمشاء حين علم بوصول المندوب ، فاستقبله من فوره ولدا تأخر عن العشاء دقائق معدودات .

فلما دخل بهو الاستقبال اتجهت اليه انظار الأشخاص الثلاثين المدعويين الى العشاء الذين كانوا جالسين الى جانب الاميرة اليزابت كشافيريفنة فورنتسوفة او واقفين جماعات الى جوار النوافذ ، وكان فورونتسوف يرتدى سترته الحربية السوداء المعتادة بأشرطة الكتف دون (الاسبلاط) ويلبس على رقبته وسام الصليب من طبقة سان جورج .

(١) كريستو بلدة تقع على بعد ثلاثين ميلا جنوبي غربي مسولنسك حرمت فيها ساقية جيبي نابليون الاول في نوفمبر سنة ١٨١٢ في اثنته تقهرها من موسكو وقد ورد ذكر ذلك في « الحرب والسلام » .

وكان وجهه النام الحلاقة ، الثعلبي الشكل قد علته لبسامة حلوة وهو يدور بعينين مشرفا على الحفل ، ولما دخل بخطى سريعة رفيقة اندثر للسيدات لتأخره وحيا الرجال ودنا من الاميرة مائة اوربلياني (وهي امرأة فارعة رفيقة وسيمية شريفة الهيئة في نحو الخامسة والاربعين) وقدم لها ذراعه ليستصحبها الى العشاء . واعطت الاميرة اليزابت كشافيريفنة فورنتسوفة ذراعها الى قائد احمر خشن الشوارب كان يزور تفليس ، وقدم امير من جورجيا ذراعه الى الكونتيسة شوازول صديقة الاميرة فورنتسوفة ، وتبع هذه الثنائيات التي في المقدمة الدكتور اندريفسكي والياور وآخرون مع سيدات او من دونهن وسحب خدم يلبسون الحل الخاصة وسراويل حتى الركبة - كراسي الاضياف واعادوها الى مكانها لدى جلوسهم بينما كان كبير النمل يعرف في احتفاء حياء تتصاعد ابخرته من « سلطانية » فضية .

واخذ فورونتسوف مكانه يتوسط احد جوانب المائدة المستطيلة وجلست زوجه في مواجهته ، والقائد الى يمينها . والى يمين الامير جلست عقلته اوربلياني الجميلة ، والى يساره امرأة من جورجيا رفيقة ذات خدين خمريين تتألق بالجواهر ولا يفتر نقرها عن الابتسام .

قال فورونتسوف (بالفرنسية) اجابة على استفهام زوجه عن الاخبار التي وافاه بها المندوب : « حسنة طيبة يا عزيزتي الغالية لقد واتني شييمون العظ » . واخذ يتحدث بصوت عال لكي يسنن لكل واحد سماع الخبر الدهش . بالإضافة اليه وحده لم يكن الخبر مفاجئا كل المفاجأة اذ ان المفاوضات كانت دائرة منذ آمد طويل) : الا وهو ان الحاج مرادا - اشجع ضباط شامل وأشهرهم - اسلم نفسه الى الروس وسيجاء به بعد يوم او يومين الى تفليس .

قصمت الجميع واصفوا حتى شباب (الياوران) والموظفين الذين جلسوا في الاطراف البعيدة للمائدة والذين كانوا يتضحكون من شيء فيما بينهم .

وعندما انتهى الامير حديثه ، سالت الاميرة جارها - القائد الاصبغ (١) ذا الشوارب المنفوشة - « وانت ايها القائد ، ألم تلق قط هذا الحاج مرادا ؟ .. » .

(١) الاصهب : الذي به حبرة او شقرة ، وفي الاصل الانجليزي : « الجزرى » .

« اكثر من مرة ايها الاميرة » .

ومضى القائد يصف كيف ان الحجاج مرادا - بعد ان استولى الجبليون على جرجبيل عام ١٨٤٣ - انقض على فصيلة القائد بالن و قتل امير الالاي زولوتوخن امام اعينهم جميعا .

واصفى فورونتسوف الى القائد وابتنس في لطف ، وقد سره على ما يبدو ان الاخير قد اشترك في الحديث . الا ان وجهه نم فجأة على انه شارد الفكر مكتئب .

وما بدأ القائد يتكلم حتى اخذ يتحدث عن لقائه الثاني مع الحاج مراد .

قال القائد : « نعم ، لقد كان هو - اذا تفضلتم سعادتكم بان تتذكروا - الذي دبر ذلك الكمين الذي حمل على فوج الانتاخذ في تجريدته (البسكوت) .

فسأل فورونتسوف وهو يجيل عينيه : « اين ؟ » .

اما الذي اطلق عليه القائد الشجاع اسم (الانتاخذ) فهو ما جرى في غارة دارجو المشنومة التي فيها كادت تهلك بقينا فصيلة كاملة ، ومعها الامير فورونتسوف الذي كان يقودها ، لو لم ينقذها وصول جنود جديدة .

ولقد عرف كل امرئ ان تجريدة دارجو بقيادة فورونتسوف - التي خسر فيها الروس كثيرا من القتل والجرحى ومدافع عديدة - كانت عملية مخزية . وعلى هذا قلن تحدث عنها اي انسان في حضرة فورونتسوف فانما يفعل ذلك على الوجه الذي ابلغه هو الى التيصر في تقديره وهو انها عمل عظيم باهر قام به الجيش الروسي .

كلمة (الانتاخذ) فتشير في وضوح الى انها لم تكن نصرا باهرا بل خطأ سبب فقصد ارواح عديدة . فهم الجميع ذلك ، فتظاهر بعضهم بانهم لم يظنوا بالكلمات القوائد ، وتربث آخرون مضطربين ليروا ما يتلو ، بينما تبادل آخرون اللمحات مبتسمين . والقائد الاصهب ذو الشارب الأشعث هو وحده الذي لم يلحظ شيئا ، فاجاب - وقد جرفته رواية قصته :

« لدى الانتاخذ يا صاحب السعادة » .

وانطلق القائد في موضوعه المفضل فسر مع ذكر التراثين كيف شق الحجاج مراد في مهارة الفصيلة شقين على حالة تأتي معها انه لو لم يصل فوج الانتاخذ (وقد بدا انه اولع بصفة خاصة بتكرار كلمة « انتاخذ ») لما اقلت من الفرقة رجل واحد : بسبب ... ولم يتم

العصبة . لان منانة اوربلياتي - وقد فهمت ما يجري - اعترضته بان سألته هل وجد اماكن مريحة في تفليس . فهبت القائد وتطلع حوله الى كل واحد وداى ياوربه من آخر المائدة ينظرون اليه .ارات مصوية ذات معنى ، ففهم فجأة ! ومن دون ان يجيب على - زال الاميرة تجهم وامسك عن الكلام وطفق يزرد على عجل الدلائل الموضوعة على طبقه التي حيره منظرها وطعمها .

وشعر الجميع بالحرج ولكن اتقذ الموقف الامير الوافد من جورجيا وهو رجل بالغ الفناء ولكنه رجل بلاط وملاق يجيد فنه الى حد غير عادي وكان يجاور الاميرة فورونتسوف من الناحية الاخرى . فقد بدا يقص - من دون ان يلوح عليه انه فهم اى شيء - كيف قتل

الحاج مرادا ارملة احمد خان المختولى .

« جاء الى القرية مساء واغتصب ما اراد اغتصابه وعدا راجعا مع الفوج كله » .

فسالت الاميرة : « ولماذا رغب في تلك المرأة بالذات ؟ » :

« آه ، كان خصما لزوجها ، وتعقبه ولكنه لم يظفر قط بلقائه الى وقت وفاته ، فثار لنفسه من ارملة » .

وترجمت الاميرة هذا بالفرنسية لصديقتها القديمة الكونتيسة سوازول التي جاوزت الامير الجورجى .

فقالت الكونتيسة بالفرنسية وهي تمضض عينيها وتهز رأسها :

« يا للفظاعة ! » .

وقال فورونتسوف باسم : « كلا كلا ! لقد اثبتت بانه عامل اسيرته باحترام نبيل وانه اطلق سراحها بعد ذلك » .

« نعم ، لقاء فدية ! » .

« اجل بالطبع ، ولكنه الى ذلك كان شريفا في تصرفه » .

ووجهت كلمات فورونتسوف (هذه) الحديث الى الاتجاه التالي اذ فهمت الجلساء انه كلما نسب الى الحاج مراد من علو الشأن ازداد الامر غبطة .

« ان جسارة الرجل لمذهلة ، انه رجل جليل الشأن » .

« نعم ، لقد انقض عام ١٨٤٩ على تميزخان شورى ونهب الحوانيت في راتمة النهار » .

وقص رجل اورمنى يجلس في طرف المائدة - كان اذ ذاك في تميزخان ششورى تفاصيل هذا العمل الباهر الذي قام به الحاج مراد .

وكان الحاج مراد فى الواقع هو الموضوع الوحيد للحديث فى اثناء الغداء جميعا .

وقد امتدح الجميع على التوالى شجاعته واقتداره ونخوته ولقد ذكر بعضهم أنه أمر بقتل ستة وعشرين اسير ولكن ذلك ايضا قوبل بالرد المعتاد . « وماذا كان يصنع ؟ (ثم بالفرنسية) الحرب هى الحرب ! » .

« انه رجل عظيم » .

« لو ولد فى أوروبا لجاز ان يكون نابليون آخر » . هكذا قال الأمير الجورجى القبى الذى يملك موهبة التملق . فهو يعلم أن كل ذكر لنابليون محب لدى فورونتسوف الذى يلبس عند عنقه الصليب الابيض مكافأة على قهره اياه .

فقال فورونتسوف : « حسنا ، ربما لا يكون نابليون ولكن قائدا شهما للفرسان اذا شئت » .

« ان لم يكن نابليون فليكن (مرا (١)) .

« واسمه الحاج (مراد) ! » .

ولاحظ شخص ما : « استسلم الحاج مراد ، والان سينتهى شامل ايضا » .

ولاحظ آخر : « يشعرون الآن » (والان هذه معنى : فى عهد فورونتسوف) « بأن ليس فى وسعهم ان يثبتوا » .

وقالت منساة اوروبية بالفرنسية : « والفضل فى ذلك كله لكم » .

وحاول الأمير فورونتسوف ان يلفظ موجة اللق التى اخذت تفيض عليه وان كانت من دواعى غيظته ، وعاد يقود عقيلته الى بهو الاستقبال وهو فى اسمى حالات الاغتياب .

وعندما قدمت القهوة فى بهو الاستقبال - بعد العشاء - كان الأمير ظريفا فوق المادة مع الجميع ، ولما وصل الى القائد ذى الشوارب الحمراء المنقوشة حاول أن يظهر كأنما لم يتنبه الى غلظته .

وبعد ان دار دورة على الأضياف جلس الى منضدة لعب الورق واقتصر على اللعبة المعتيقة (أمير (٢)) ليس غير . وكان شركاؤه الأمير الجورجى وقائد أرمينى (تعلم لعبة الأمير من وصيف للأمير

(١) Murat زوج كارولين بونابارت قائد فرانسى عظيم .
(٢) Ombre لعبة من ألعاب ورق الشمة .

فورونتسوف) والدكتور اندريفسكى وهو رجل اشتهر بما له من نفوذ عظيم .

وبعد ان القى الأمير مسعته (١) الذهبى الذى يحمل على غطائه صور اسكتلر الأول (٢) مزق غلاف رزمة من ورق اللعب المصقول سقلا ممتازا وشرع ينشرها حين حمل له وصيفه الايطالى جيوفانى خطابا فوق صينية من الفضة .

« برید آخر يا صاحب السعادة » .

فالتقى فورونتسوف اوراق اللعب واعتلر ورفض الخطاب وأخذ يقرأ .

وكان الخطاب من ولده الذى وصف استسلام الحاج مراد ولقاءه الخاصى للمر زاكوميلسكى .

وجاءته الأميرة واستفهمت عما كتبه ولدهما .

« كله عن الموضوع نفسه » ثم قال بالفرنسية : « حدثت له مع حاكم المنطقة بعض الخلافات ، لقد كان سيمون مخطئا » وأضاف بالانجليزية : « كل ما ينتهى نهاية حسنة فهو حسن » مناولا زوجه الخطاب ، ثم استدار الى شركائه المنتظرين فى احترام وسألهم أن يسحبوا ورقا .

ولما فرق ورق اللعب اول مرة صنع فورونتسوف ما اعتاد ان يصنعه كلما كان متهيج النفس خاصة : اخذ تنشيقه من السموط الفرنسى وحملها الى أنفه بيده البيضاء المتفضنة الهرمة ثم أرسلها .

(١) اسعوط والسموط : علبه النشوق .

(٢) قبصر روسيا حكمها بين ١٨٠١ و ١٨٢٥ قهره نابليون بونابرت وعقد معه صلح نانتس وفى عهدهم فيما بعد سنة ١٨١٢ اضطر تساقط الثلج الغزير نابليون الى التفتقر .

منى فى نشاط عبير ارضية بهو الاستقبال المكسوة بالخشب الثمين (١) وقوامه الأهيف جميعا يترجع هونا ما نتيجة لمرجه برجل واحده كات مصر من الأخرى ، وعينه اللتان ركبنا - بعيدة كل منهما عن الأخرى - تنظران قدامه فى هدوء ويبدو انهما لا تريان احدا .

حياه هذا الياور الوسيم وسأله أن يجلس بينما يذهب هو ليعان قدومه الى الأمير . غير أن الحاج مرادا أبى أن يجلس ، ووضع يده على خنجره ووقف ، مقدما احدى قدميه ، يدور بنظره ازدياء على الحاضرين جميعا .

ودنا مترجم الأمير - الأمير طرخانوف - من الحاج مراد وتحديث انيه فكان يجيب فى اقتضاب وفى غير رغبة . وخرج من غرفة الأمير امير من كوميك اتى الى هناك ليودع شكاة ضد أحد موظفى الشرطة ، وبعد ذلك دعا الياور الحاج مرادا وقاده الى باب المكتب وأدخله .

واستقبل القائد العام الحاج مرادا ، واقفا الى جوار منضدته ، ولم تمل وجهه الأبيض المعجوز ابتسامة الامس بل كان أقرب الى التجهم والجد .

وعندما دخل الحاج مراد الغرفة الفسيحة ، بمنضدتها الضخمة ونوافلها الكبيرة ، ذوات أستار البندقية (٢) الخضراء ضم يديه الصغيرتين اللتين لوحتهما الشمس الى صدره تماما حيث يتراكب مقدم سترته البيضاء . ثم غض طرفه وبدا مستأنيا يتكلم فى وضوح واحترام باللهجة الكوميكية التى يتقن الكلام بها .

قال : « انى أضع نفسى تحت حماية القيصر الأكبر وتحت حمايتك وأنعمد بان أخدم القيصر الأبيض فى ايمان وصدق الى آخر قطرة من دمي . وارجو أن أنفعكم فى محاربة شامل الذى هو عدوى وعدوكم » .

ولما ترجم المترجم بصوت مسموع رنا فورونتسوف الى الحاج مراد ورننا الحاج مراد الى فورونتسوف .

(١) اى الباركيه .

(٢) البندقية فينيزيا : ميناء ايطاليا مشهور بطراز جميل من الفنون .

عندما حضر الحاج مراد الى قصر الأمير فى اليوم التالى كان بهو الاستقبال قد غص بالنسب . وكان قائد الامس ذو الشوارب المنفوشة قد جاء الى هناك بكامل لبسه الرسمى وكل اوسمته ليستأذن فى السفر . وكان هنسالك قائد فرقة مهدد بالحكمة امام مجلس عسكري لاختلاسه اموال الميرة وكان هناك نرى ارمنى (يرعاه الدكتور اندريفسكى) يسعى لسكى تجدد له الحكومة احتكاره بيع الفودكا . وكانت هناك فى ثياب سوداء ارملة ضابط قتل فى الحرب ، وقد وفدت لتطلب معاشا او تعليم بنيتها مجانا . وكان هناك امير جورجى مفلس يرتدى لباسا جورجيا فأخرا يسعى للحصول لنفسه على بعض عقار الكنيسة المصادر . وكان هناك موظف يحمل لفيفة عريضة من الورق تضم مشروعا جديدا لاختضاع القوقاز . وكان هناك كذلك (خان) قد جاء يبغى قرضا واحدا ، وهو أن يخبر قومه فى وطنه بانه عرج على الأمير .

وانتظر كل منهم دوره ، وكان يدخلهم - الواحد تلو الآخر - ويخرجهم منه ثانية الياور ، وهو شاب وسيم اشقر .

ولما دخل الحاج مراد بهو الاستقبال بمشيته النشيطة وان تكن عرجاء اتجهت صوبه جميع العيون ، وسمع اسمه همسا من نواحي الغرفة المختلفة .

وكان يلبس سترة شركسية طويلة بيضاء فوق مشلح احمر داكن (يربته حول طوقه) (١) شبايك (٢) من الفضة و (طولوق) اسود وحذاءين طريين من اللون نفسه بنيسطان على ظاهره قدميه كأنهما قفازان وعلى رأسه طاقية حولها قماش كالعمامة - وهذه هى العمامة ذاتها التى قبض عليه من أجلها - بعد أن وثى به أحمد خان - القائد كلوجناو والثى كانت سببا فى ذهابه الى شامل .

(١) الرقبة او النيقة « البياقة » .

(٢) شبايك اى عر شكل « الدنل » .

والتقطت عين الرجلين وبادلت التعبير عن ابلغ مما يستطاع صوغه في كلمات . ولم يكن هذا قط ما قاله المترجم ، فقد قال كل منهما لصاحبه الحقيقة جميعا بغير لغة الكلام : قالت عينا فورونتسوف انه لم يصدق كلمة واحدة مما كان يقوله الحاج مراد . وانه يعلم بانه (الحاج مراد) كان - وسوف يكون دائما - عدوا لكل روسي ،

وبئنه لم يدعن الا مكرها . فهم الحاج مراد هذا واستطرد مع ذلك يؤكد ولاده . وقالت عيناه : « كان ينبغي لهذا الرجل المجوز ان يفكر في وفاته لا في الحرب ، وهو داهية برغم شيخوخته وعلى ان اكون

حلوا » . وفهم فورونتسوف هذا ايضا ولكنه مع ذلك تحدث الى الحاج مراد بالاسلوب الذي حسبه ضروريا لكسب الحرب .

قال فورونتسوف : « قل له ان مليكتنا رحيم بقدر ما هو شديد ،

وقد يغفو عنه بناء على رجائي ، وبضمه الى خدمته » ... وسأل وهو

ينظر الى الحاج مراد : « اخبرته ؟ » ... والى ان يردني القرار الكريم من مولاي ، قل له اني اقطع على نفسي ان استقبله وان اجمل اقامته بيننا رضية » .

فضم الحاج مراد يديه وسط صدره وبدأ يقول كلاما وهو متحمس .

وترجم المترجم : « يقول انه - عندما سبق له حكم اقراريا عام ١٧٣٩ - خدم الروس باخلاص ولم يكن ليتخلى عنهم قط لولا ان عدوه احمد خان اراد ان يمحقه قوشى به لدى القائد كلوجينا » .

قال فورونتسوف (ولو انه كان قد علم اطلاقا لنسى من امد بعيد) : « عارف عارف » واعاد وهو يجلس موجها الحاج مراد اني (الديوان) القائم الى جوار الحائط : « عارف » . غير ان الحاج

مراد لم يجلس بل هز منكبيه القويتين اشارة الى انه لا يستطيع ان يحمل نفسه على الجلوس في حضرة رجل خطير مثله ، واستطرد يخاطب المترجم :

- « احمد خان وشامل كلاهما عدوي . قل للامير ان احمد خان مات وليس في وسعي ان اثار لنفسي منه . اما شامل فحي ولن اموت دون ان انعم لنفسي منه » . قال هذا وعقد حاجبيه واحكم افعال فمه .

قال فورونتسوف في هدوء للمترجم : « نعم ، نعم ، ولكن كيف بود ان يثار لنفسه من شامل ؟ وقل له بان يتفضل بالجلوس » .

وابى الحاج مراد مرة اخرى ان يجلس . وقال اجابة على السؤال : ان هدفه من المجيء الى الروس هو مساعدتهم على اهلاك شامل .

قال فورونتسوف : « عظيم عظيم ، ولكن ما الذي بود فعله بالضبط ؟ ... اجلس اجلس ! » .

فجلس الحاج مراد وقال : « لو انهم فقط ارسلوه الى خط لسفيا واعطوه جيشا لضمن ان يثير كل داغستان ، ولن يستطيع شامل المقاومة بعد ذلك » .

قلل فورونتسوف : « سيكون هذ بديعا ... سافكر في الامر » .

وترجم المترجم كلمات فورونتسوف للحاج مراد .

وتدبر الحاج مراد .

وبدا الحاج مراد من جديد : « بقي ان تقول للسردار شيئا واحدا

وهو ان اسرتي بين يدي عدوي ، وما داموا في الجبال فانا مقيد ولا تسعني خدمته ، ولو جهرت بمحاربتى شاملا فسيقتل زوجي

وامي واطفالي . فليبادل الامير اولا اسرتي بمن لديه من اسرى وساهلك بعد ذلك شاملا او اهلك انا » .

فقال فورونتسوف : « طيب طيب ، سافكر في الامر ..

والآن فليذهب الى رئيس اركان الحرب وليوضح له مركزه ومقاصده ورغباته تفصيلا » .

وعلى هذا النحو انتهى الحديث الاول بين الحاج مراد وفورونتسوف .

وفى تلك الاسبية كانت تمثل اوبرا ايطالية في دار التمثيل الجديدة

التي اخذت زخرفتها وازينت على الطراز الشرقي . وكان

فورونتسوف في مقصوره عندما لاح في المقاعد الخلفية الشكل

الأخاذ للحاج مراد الظالع (١) بلبس عمامته ، وقد دخل مع لوريس ميليكوف (٢) (ياور فورونتسوف) الموكل به ، وجلس في مقعد بالصف الأول . وبعد أن جلس في أثناء الفصل الأول وعليه المهابة الإسلامية الشرقية دون أن يبدي سرورا بل أبدى عدم اكتراث بين ، نهض ونظر حوله في هدوء الى المتفرجين وخرج مسترعيا الى نفسه نظر الجميع .

وكان اليوم التالي يوم اثنين ، وقد اقيمت الوليمة المسائية المعتادة لدى آل فورونتسوف . وكانت تمزف في الأيوان الفسيح المشرق بالضياء جوقة تحجبها الأشجار . وأخذ نساء صغيرات ونساء لسن جد صغيرات - بلبس حلالا تستعرض أعناقهن وأذرعهن ونهودهن العارية - أخذن يحدو من يبدو من في أحضان رجال يرتدون بدلات رسمية بهية . وفي المقصف أخذ نذل - بلبسون سترا (٣) حمراء لا ذيل لها وأحذية وسراويل الى الركبة - يسكبون الشمبانيا ويقدمون الحلوى للسيدات . وطافت عقيلة السردار بين الأضياف - نصف عارية كذلك برغم سنها - تبتسم في بشاشة . وعن طريق المترجم قالت كلمات قليلة أنيسة للحاج مراد الذي رمق الأضياف .

يمثل ما أظهره في دار التمثيل أمس من عدم الاكتراث . وفي اثر المضيئة جاءت إليه نساء نصف عاريات ووقفن جميعا أمامه في غير استحياء ، يسألته باسمات السؤال نفسه الى حد أعجبه ما رأى ؟ وأتى اليه فورونتسوف نفسه - بلبس (اسبلايت) وأنشوطتين ذهبيتين على كتفيه والصليب الأبيض والوشاح على جيده وسأله السؤال نفسه . كان طبيعيا أن يشعر يقينا كالأخرين بأن الحاج مرادا لا يسعه الا أن يسر بما رأى . الا أن الحاج مرادا أجابه بمثل ما أجابهم به جميعا : ذلك أن شبيثا من هذا لا يجرى بين قومه ، دون أن يبدي رأيا : أقبح هو على تلك الصورة أم حسن .

(١) فلع « من باب فتح ، غمز في مشيئته .

(٢) هو الكونت ميخائيل نار ييلوفتش لوريس ميليكوف الذي عين فيما بعد وزيراً للدخالية وصاع الدستور الحر الذي وقعه القيصر اسكندر الثاني يوم اغتياله .

(٣) ستر « بضم ففتح ، جمع سترة « بضم السين ، وهي ما يستر به . والمقصود هنا الجاكيتات ..

وهنا في المرقص حاول الحاج مراد أن يتحدث الى فورونتسوف عن شراء أسرته ، غير أن فورونتسوف تظاهر بأنه لم يسمعه ومشى بعيدا . وأخبر لوريس ميليكوف الحاج مرادا بعد ذلك بأن هذا ليس المكان المناسب للتحدث في شئون العمل .

وعندما دقت الساعة الحادية عشرة واستوثق الحاج مراد من الزمن بالساعة التي أعطاه إياها فورونتسوف سال لوريس ميليكوف هل يستطيع أن ينصرف ، فأجاب بأن في وسعه أن يفعل وأن كان الأولى أن يبقى . ورغم هذا لم يبق الحجاج مراد بل انطلق بـ (الفيتون) (١) الذي وضع تحت تصرفه الى المنزل الذي خص له .

(١) مركبة مكتسوفة بسيطة .

حتى الحاج مراد رأسه واطرق مليا ثم تناول عصا كانت ملقاة الى جوار الأريكة ، وسحب من تحت خنجره سكيناً صغيراً ذا مقبض عاجي مطعم بالذهب ماضياً كالومسي ، وأخذ يشذب به العصا وينكلم في الوقت نفسه .

وبدا : « اكتب : ولد في تسليمس وهي محلة صغيرة (في حجم رأس الحمار) على حد تعبيرنا في الجبال . وعلى كتيب منها - على بعد طلقتين من طلقات المدفع - تقع خانزاق حيث أقام (الخانات) (١) وكانت أسرنا وثيقة الارتباط بهم » .

وعندما ولد أخى الأكبر عثمان أرضعت أمي أبا النزال خان أكبر (الخانات) (٢) سناً ثم أرضعت الابن الثاني (خان (٣) الأمة خان) وربته ولكن مات أحمد أخى الثاني ، ولما ولدت الخان شاه (٤) بولادخان لم تشأ أمي أن تعود مرضعاً له وأمرها أبي بالذهاب ولكنها أبت قائلة : « لن أذهب والا قتلت مرة أخرى ولدى أنا » فما كان من أبي - وكان سريع الانفعال - الا أن طرعه بخنجر وكاد أن يقضى عليها لو لم يخلصها منه ، وعلى هذا لم تتخل عني ، وفيما بعد نظمت اغنية ... ولكن لا حاجة بي لأن أحدثك عن ذلك .

قال لوريس ميليكوف : « كلا ، عليك أن تخبرني بكل شيء ضروري » .

وأوغل الحاج مراد في التفكير ، وتذكر كيف كانت أمه ترقده لينام بجوارها تحت سترة من الفراء على سطح الدارة ، وتذكر سؤاله أياها أن تريحه الموضع من جانبها الذي ما تزال ندبة جرحها ظاهر به . وردد الاغنية - وقد تذكرها :

« نغد نصل الصلب اللامع في صدري - ولكنني ضمنت فوقه مباشرة ولدى المشرق ، ولدى الغالي ، حتى اغتسل جسده في مجرى دمي - ثم برىء الجرح دون الاستعانة بأعشاب أو حشائش . وكما أتى لا آهاب الموت ، كذلك ولدى لن يهابه أبد الدهر » .

وأضاف : « وأمى الآن في بدى شامل ويجب انقاذها » ... وتذكر النبع الذي في سفح الجبل وقتما استمسك بسرابيل أمه التركية الفضفاضة (٥) وراقفها في طلب الماء .. وتذكر كيف حلقت

(١) الخان : كلمة دخيلة تطلق على نوع من الامراء .

(٢) و (٣) الخان : كلمة دخيلة تطلق على نوع من الامراء .

(٤) الخان شاه : حرم الخان ..

(٥) واسمها الامصيل « شارويرى » .

وفي اليوم الرابع من اقامة الحاج مراد بتفليس جاء لوريس ميليكوف - باور نائب القيصر - ليراه بناء على امر الأخير .

فقال الحاج مراد في أسلوبه السياسي المعتاد وهو يحنى رأسه ويضم يديه الى صدره : « سير رأسي ويدي ان يخدم السردار » : وقال وهو يرنو في انباس الى وجه لوريس ميليكوف : « مرني ! » :

جلس لوريس ميليكوف في كرسي (فوتي) موضوع الى جانب المنضدة والحاج مراد فوق أريكة منخفضة قبائله وأسند يديه فوق ركبتيه وحتى رأسه وأصغى في انتباه الى ما يقوله له الآخر .

أخبره لوريس ميليكوف - الذي يتكلم اللسان التتري في طلاقة - بأن الأمير ، وأن علم بما مضى من حياته ، يرغب في أن يسمع القصة كلها منه شخصياً .

- « خبرني بها ، وسأكتبها وانقلها الى اللغة الروسية وسرسلها الأثير الى الإمبراطور » .

وظل الحاج مراد صامتا هنيهة (انه لم يقاطع قط اى انسان وانما كان دواما ينتظر ليرى هل عند محدثه شيء آخر يريد) . ثم رفع رأسه وهز طاقيته الى وراء ، وابتسم تلك الابتسامة الخاصة التي تشبه ابتسامة الطفل التي سلبت لب مارية فاسيلفنة .

فقال : « يسعني ان اصنع هذا » وكان واضحاً أن قد أزدته فكرة ان الإمبراطور سيقراً قصته .

قال لوريس ميليكوف وهو يسحب من جيبه دفتر المذكرات : « عليك ان تقص على (في اللسان التتري لا يخاطب احد بصيغة الجمع) كل شيء في ترو من البداية » .

فقال الحاج مراد : « يسعني ان اصنع هذا ، غير ان عندي كثيرا - كثيرا جدا - اقوله ! لقد جرت وقائع كثيرة ! » .

قال لوريس ميليكوف : « ان لم يسعك ان تقصها كلها في يوم واحد فستبها في وقت آخر » .

- « الأبد من البداية ؟ » .

- « اجل ، من أول البداية .. أين ولدت وأين عشت » .

ونعوا الورق مع امة خان وسقوه الخمر وقادوه الى ميايات الفساد ،
وخسر لهم في لعب الورق كل ما كان لديه . نعم ، كان جسد ، في
مثل قوة النور وكان في مثل شجاعة الأسد ولكن نفسه كانت في مثل
رخاوة الماء . ولولا انى عدت به لخسر في الميسر ما بقى له من خيل
وسلاح .

« وبعد زيارتي لتفليس تغير رأيي واثرت على الخان شاه المعجوز
(الأخوان) بالمشاركة في الغزوات ...
فسال موريس ميليكوف ، « وما حدك الى تغيير رأيك ؟ ألم تكن
راضيا عن الروس ؟ » .
وتوقف الحاج مراد .

ثم اجاب في تصميم وهو يغمض عينيه : كلا ، لم اكن راضيا .
على انه كان هناك ايضا سبب آخر لرغبتى في المشاركة في
الغزوات » .
« وما كان هذا ؟ » .

« نعم ، بالتقرب من تسليمس قابلنا - الخان وانا - ثلاثة من
المريدين فر منهم اثنان ، اما الثالث فقد اطلقت عليه النار من
غدارتى .

وكان ما يزال حيا عندما دنوت لاخلد سلاحه . فرقع بصره الى
وقال : « انت قتلتنى ... انا سعيد بذلك ، ولكنك مسلم وشاب
وشديد شارك في الغزوات ، فهذا ما شاء الله ! » .
« وهل شاركت فيها ؟ » .

فقال الحاج مراد : « لم افضل ، الا ان ذلك حدانى الى
التفكير ... » واستمر في قصته :

ولما بلغ حمزة مشارف خان زاخ اوفدنا اليه اشياخنا ليلفوه اتنا
نوافق على المشاركة في الغزوات اذا ارسل اليها الامام عالما بين لنا
ما هي . فامر حمزة باشياخنا فطلقت لهم سواربهم ونفست
خياشيمهم وعلقت فطائر بانوفهم ، وبهذه الحال اعادهم الينا .

« وابلغنا الاشباح بان حمزة متاهب لايفاد شيخ يقفها في شئون
الغزوات ولكن بشرط ان ترسل اليه الخان شاه ولدها الاصفر
رهينة لديه ، فامت لكلامه وارسلت ولدها الاصفر
بولادخان . واحسن حمزة استقباله وارسل يدعو الاخوين الكبارين
كذلك ، ويحث بقول : انه يود ان يخدم (الأخوان) كما خدم ابوه
اباهم ... وكانت الخان شاه امرأة ضميقة غبية مفرورة ككل

له راسه اول مرة وكيف ادهشه انعكاس صورة راسه (المستدير
الضارب لونه الى زرقة) على الاناء النحاسى اللامع الذى تعلق
بالحائط ... وتذكر كلما اعجف كان يلحق وجهه ... وتذكر رائحة
الذخان واللبن الحامض - وتذكر كيف كانت امه تحمله في سلة فوق
ظهرها عندما تزور جده بالزرعة .. وتذكر جده المتعفن بشعره
الرمادية وكيف كان يطرق القضة بيديه المسمورتين (٢) .

قال وهو يهز راسه هزة : « حسنا ، وهكذا لم تذهب امي بوصفها
مرضعا ، واستخدمت الخان شاه مرضعا اخرى ولكنها ظلت مفرمة
بأمى التى اعتادت ان تستصحبنا نحن الاطفال الى قصر الخان شاه
حيث كنا نلعب مع اطفالنا ، وكانت مفرمة بنا كذلك .
وكان هنا ثلاثة (خانات) صفار : « ابو النزال خان وهو اخ في
الرضاعة لثقيقى عثمان ، واما خان وهو اخى فى العهد ، وبولادخان
وهو الاصفر الذى طوح به شامل فى الوهدة ، غير ان ذلك حدث
قيما بعد » .

كنت فى السادسة عشرة عندما بدأ المريدون يزورون المحلة .
وكانوا يدقون الحجارة بخدب(٣) من الخشب ويهتفون : (ايها المسلمون
الغزوات) ! .. ودخل الششنيون جميعا فى مذهب المريدية ، وبدأ
الاقاربون يدخلون فيه كذلك . وكنت اذ ذاك اعيش فى القصر كاتى
اخ (للاخوان) ، وتسنى لى ان اصنع ما اريد واصبحت غنيا ، وكانت
لى خيل واسلحة واموال ، وكنت اعيش للملذات ولم اكن احفل
بشيء . وداومت على تلك الحال حتى اغتيل الامام كاذى ملا وخلفه
حمزة . وارسل حمزة رسلا الى (الأخوان) يندرونهم بانهم سيدمر
خان زاخ ان لم يشاركوا فى الغزوات .

« واحتاج هذا الى تدبر ، (فالأخوان) يخافون الروس ولكنهم
كذلك كانوا يخشون المشاركة فى الحرب المقدسة . فاوقدتنى الخان
شاه المعجوز مع ولدها امة خان الى تفليس لاستعين القسائد العام
الروسي على حمزة . وكان القائد العام الروسى قى تفليس هو البارون
روزن . وهو لم يلقنا لانا ولا امة خان . بل ارسل يقول انه
سيساعدنا ، ولكنه لم يصنع شيئا ، وانما جاء اليها ضباطه وركبين

(١) ضرب من الفطير الرحاح .

(٢) المسمور : القليل اللحم الشديد العصب .

(٣) الاحتب : سيف عربي مقوس والجمع بضم فسكون .

النساء عندهما لا يكن محكومات ، فخافت أن ترسل الولدين كليهما
واكتفت بإرسال أمة خان . ذهبت معه ولقينا مریدون بين وصولنا
بنحو ميل ، وأنشدوا وأطلقوا النار وحفوا بنا . ولما دنونا خرج حمزة
من فسطاطه (١) وذهب إلى ركاب سرج أمة خان واستقبله كما
يستقبل (الأخوان) . وقال : « أنا لم أؤذ أسرتك فيلأ ، ولست
أرغب في أن الحق بها أي أذى . فأرجسوك فقط الا تقتلني والا
تمنعنني من اجتذاب الناس إلى الفزوات أخدمك بكل جيش كما خدم
أبي اباك ! وألذن لي أن أعيش في بيتك أمينك بمشورتي ، ولتعمل
انت ما تشاء » .

كان أمة خان بطيء الكلام ، ولم يعرف كيف يجيب وظل صامتا .
اذ ذاك قلت : اذا كان الأمر كذلك فليحضر حمزة إلى خان زاخ
فتستقبله بالثشريف انحن شاه و (الأخوان) ... ولكن لم يسمع لي
في انمام كلامي . وهنا واجهت شاملا لأول مرة وكان إلى جوار
الامام . فقال لي : « انت لم تسأل وانما سئل الخان ! » .
فسكت ، وقاد حمزة أمة خان إلى داخل فسطاطه . وبعدئذ ناداني
حمزة وأمرني ان اذهب إلى خان زاخ مع رسله فذهبت . وأخذ
الرسل يحسنون للخان شاه ان توفد أيضا ولدها الأكبر إلى حمزة
ورأيت أن هناك غدرا فقلت لها الا توفده ، غير ان المرأة لديها من
التمييز بقدر ما لدى البيضة من الشسر ، فأمرت ولدها
بالذهاب . ولم يكن أبو النزال يرغب في ذلك . اذ ذاك قالت : « أرى
أنك خائف ! » وعرفت كالنحلة أين تلدغه في أشد ما يكون الألام .
فاحمر وجه أبو النزال ولم يوجه لها كلاما بعد ، بل أمر بفرسه
فأسرج ، وذهبت معه .

ولقينا حمزة بحفاوة أعظم من الحفاوة التي لقي بها أمة خان .
وقد خرج هو نفسه راكبا إلى مسافة طلقتين من البندقية في انحدار
الجبل ليلقانا . وتبعه فوج من الخيالة بينادقهم ، وقد أنشدوا
وأطلقوا النار وحفوا بنا كذلك .

ولما بلغنا المخيم قاد حمزة الخان إلى داخل الفسطاط وبقيت
انا مع الخيل ...

وكنت على بون ما في انحدار الجبل عندما سمعت رصاصا يطلق
في خيمة حمزة . فعدوت إلى هناك ورأيت أمة خان برقد منبطحا
في بركة من الدم ، وكان أبو النزال يقاتل المریدين ، وقد قطع أحد

(١) الفسطاط : الخيمة وأصلها البيت من الصخر « بلتح الصخر » .

خديه وتدل . فاستنده بيده ، وبالأخرى طمن بخنجره كل من دنا
منه . وقد رأيت يصرع أخا حمزة ويسدد طعنة إلى رجل آخر .
ولكن اذ ذاك أطلق المریدون النار عليه فسقط .
ووقف الحاج مراد ، وجرى الدم في وجهه الملوح احمر قاتما
والتهبت عيناه .

« فملكني الخوف وجريت بعيدا » .
قال لوريس ميليكوف : « أحمقا ؟ ... كنت اظن أنك لم تخف
قط » .

— « لم اخف بعد ذلك ... اذ منذ ذلك الوقت تذكرت هذا الخزي
دائما ، وكلما عاودتني ذكره صرت لا أخشى شيئا » .

قال الحاج مراد وهو يسحب من جيب داخلي في صدر سترته
الشركسية ساعة فورونتسوف الدقاقة ويضغط الزمبرك في عناية :
« ولكن بحسبى هذا لقد حان ميقات صلاتى ... ودقت هذه
الساعة اثنتى عشرة وربما ، واستمع اليها الحاج مراد ورأسه محنى
الى جانب وهو يكتظم ابتساما كابتسامة الطفل » .
وقال باسما : « ساعة اخى فى العهد فورونتسوف » .
فقال لوريس ميليكونف : « ساعة جيدة ، حسنا ، اذهب انت
اذن وصل ، وسانتظر انا » .
قال الحجاج مراد : « (تكشى) حسنا جدا وذهب الى غرفة
نومه » .
فلما ترك لوريس ميليكونف وحده اخذ يقيد فى دفتر ملاحظاته
الهام من الاشياء التى قصها الحاج مراد . ثم اشعل لفيقة تبغ
واخذ تمشى فى الغرفة بخطاه ذهابا وجيئة . ولما بلغ الباب المقابل
لغرفة النوم سمع اصواتا متحمسة تتكلم فى سرعة باللسان التترى .
وحزر أن المتكلمين هم مريدو الحجاج مراد ، ففتح الباب ودخل
عليهم .
وكانت الغرفة مشبعة بتلك الرائحة الجلدية الحمضية التى اختص
بها الجبليون . وكان جمزالو الأهور ذو الشعر الأحمر يجلس على
طيلسان مبسوط على الأرض - فى قميص ودك (١) مهلهل يعقص (٢)
لحاما وكان يقول شيئا وهو مهتاج يتكلم فى صوت اجش . فلمسا
دخل ميليكونف صمت من فوره واستطرد يشتغل دون أن يعيره أى
التفات . ووقف قبالة جمزالو ، الخان المرح محمد يبين عن أسنانه
البيضاء ، وعيناه السوداوان المجرذتان عن الأهداب تلمعان ، وقف
يقول شيئا بديء فيه ويعيد . وكان الدار الوسيم - وكماه مقلوبان
الى أعلى فوق ذراعيه الشديديتين - يطو حزام سرج يتدلى من
مسمار . أما حنقى - كبير العمال ومدير الخدم - فلم يكن هناك
بل كان يطهو عشاءهم فى المطبخ .

(١) ودك : أى مشحم .

(٢) يعقص : أى يصفى .

وسأل لوريس ميليكونف بعد أن حياهم : « فيم كنتم
تتجادلون ؟ » .

فقال خان محمد وهو يمد يده للوريس ميليكونف : « انه ما يزال
يستمسك بامتداح شامل . يقول ان شاملا رجل عظيم متفقه
دولى وشهم » .

« وكيف يتأتى ان بهجره ويستمر فى امتداحه مع ذلك ؟ » .
فردد خان محمد ، وأسنانه تتجلى وعيناه تلمعان : « لقد هجر
شاملا واستمر فى امتداحه مع ذلك » .

وسأل لوريس ميليكونف : « وهل يحسب حقا انه ولى ؟ » .
فجعل جمزالو بقوله : « لو لم يكن وليا ما استمع اليه
الناس » .

فاجاب خان محمد : « ليس شامل بولى ، ولكن منصورا كان
كذلك ، كان منصور وليا حقا . وعندما كان اماما كان الناس
غيرهم الآن . ولقد درج على ان يعبر المحلات راكبا ودرج الناس
على أن يخرجوا ويقبلوا أهذاب سترته ويعترفوا بخطاياهم ويقطعوا
العهود بالأا يرتكبوا انما . واذا ذلك كان الناس قاطبة - هكذا يقول
المعمرون - يعيشون كالأولياء ، لا يشربون الخمر ولا يدخنون
ولا يهملون صلواتهم ويفقر بعضهم ذنوب بعض حتى عندما تراق
الدماء . واذا وجد أحدهم - اذ ذلك - نقودا (أو أشياء ما) شدها
الى وتد ورفعها الى جانب الطريق . ولقد قبض الله للناس فى
تلك الأيام الفلاح فى كل شيء - لا كيامتنا هذى » .
قال جمزالو : « فى الجبال الآن لا يدخنون ولا يشربون
الخمر » .

وقال خان محمد وهو يغمز بعينه للوريس ميليكونف : « لقد كان
شاملك لا موريا » (كانت كلمة « لامورى » تعبير زراية يطلق على
الجبليين) .

فاجاب جمزالو : « نعم (لامورى) معناها جبلى ، ولكن الجبل
ماوى النسور » .

قال خان محمد متهافنا (١) وقد أعجبه من غريمه رده المناسب :
« يا لك من فتى بارع ! رمية مسددة » .

فلما بصر خان محمد بالعلبة الفضية للغائف التبغ فى يد لوريس
ميليكونف ساله لفيقة . ولما لاحظ لوريس ميليكونف ان التدخين

(١) امنف : ضحك فى فتور .

حرب من ضروب المرح ، لا يعرف ما يصنع بالنافل (١) من حيويته ، وهو أبدا مبتهج طائش يلعب بحياته وحياة الآخرين ، ومن أجل هذا النوع من الرياضة جاء إلى الروس الآن ، ومن أجل هذا النوع نفسه من الرياضة قد يعود إلى شامل غدا .

وكان فهم شخصية الدار كذلك من السهولة بمكان ، فهو رجل يدين بأكبر الولاء لمرشده ، شديد قوى العزم .

أما جمزالو ذو الشعر فكان الوحيد الذي لم يفهمه لوريس ميليكوف . وقد رأى أن هذا الرجل لم يكن يدين بالولاء لشامل وحسب بل كان إلى هذا يشعر نحو الروس جميعا بكرامة وازدراء ونفور ومقت لا سبيل إلى فصلها عنه . وعلى ذلك لم يكن في مقدور لوريس ميليكوف أن يفهم لماذا جاءهم . فجال بخاطره ما أراب بعض كبار الموظفين من أن استسلام الحاج مراد وحكاياته عن كراهته شاملا قد تكون باطلة . وأنه ربما يكون قد خضع لشيء سوى استطلاع مواطن الأضعف لدى الروس ، وأنه بعد قراره وعودته إلى الجبال قد يقدر على أن يوجه قواته بمقتضى ذلك . وقد عززت شخصية جمزالو جميعا هذه الريبة .

* وظن أن الآخرين والحاج مرادا نفسه يعرفون كيف يسترون مراقبتهم ، ولكن هذا الرجل يفضحهم بكرامته المكشوفة .

وحاول لوريس ميليكوف أن يتحدث إليه ، وسأله ألم يشعر بملأ ؟ فقدم بصوت أجش دون أن يتوقف عن عمله : « كلا ، لا أشعر بملأ ! » ولج سائله من زاوية عينه الوحيدة ، وأجاب على سائر أسئلة لوريس ميليكوف الأخرى بما لا يخرج عن ذلك .

وفيما كان لوريس ميليكوف بالفرقة دخل أفار حنفي المرید الرابع للحاج مراد ، وهو رجل أرب (١) الوجه والعنق مقوس الصدر أشعث كأنما هاشت فيه الطحالب . وكان شديدا دؤوبا على العمل دائم الانهماك في واجباته ، وهو كالدار يطبع سيده طاعة عمياء .

فلما دخل الفرقة ليحضر شيئا من الأرز استوقفه لوريس ميليكوف وسأله من أين أتى وكه من الزمن ظل في خدمة الحاج مراد ؟

فأجاب حنفي : خمس سنوات ، وأنا من المحلة التي هو منها . وقال في هدوء وهو ينظّر من بين حاجبيه القرونين إلى لوريس

(١) مازاد عن اللزوم .
(٢) أرب : أي كثير شعر الوجه .

محرم غمز بعين واحدة ودفع رأسه صوب غرفة نوم الحاج مراد . وأجاب بأن في وسعهم أن يفعلوا ذلك طالما يبعدون عن الأنظار . وبدأ من فوره يدخن دون أن يستنشق الدخان ويبط شفتيه الحمراء في غير لباقة وهو ينفخه .

قال جمزالو في حدة : « هذا خطأ » - وزايل الفرقة . وغمز خان محمد بعينه صوبه واستفهم وهو يدخن من لوريس ميليكوف : أين أفضل مكان يستطيع أن يباع منه مشلحا حريريا وطاوية ييضاء ؟ .

« لماذا ، أذلك هذا الكثير من النقود ؟ » .
قال خان محمد وهو يغمز بعينه : « لدى ما يكفي » .
فقال الدار وهو يدير وجهه الباسم صوب لوريس ميليكوف :
« سله من أين جاء بالنقود » .

قال خان محمد عجلا : « آه ، أنا بحاجة إليها ! » وقص كيف صادف - وهويسر في تفليس في اليوم السابق جماعة من الرجال - بين روسي وأرميني بلعيون الأريلايكة (ضرب من « الطرة والباط (١) ») وكان الزهان كبيرا : ثلاث قطع ذهبية وفضة كثيرة . ورأى خان محمد لتوه مم تتألف اللعبة ؟ وسوس بالنقود المعدنية التي كانت في جيبه وقصد إلى اللاعبين وقال انه يراهن على القدر كله .

وسأل لوريس ميليكوف : « وكيف استطعت أن تفعل ذلك ؟
إكان معك مثل هذا القدر ؟ » .

فقال خان محمد وهو يهتف : « كان معي اثنا عشر كوبكا (٢) ليس غير » .

« فإذا كنت خسرت ؟ » .
فقال خان محمد مشيرا إلى غدارته : « هذه ! » .
« أكنت تسلم هذه ؟ » .

« أسلم حقا ! كنت سافر ، فإذا حاول أحد صدق صرعته ، هذا كل ما في الأمر ! » .

« حسنا ، وهل كسبت ؟ » .
« أي نعم ، كسبت جميعا وانصرفت ! » .

وفهم لوريس ميليكوف كل الفهم أي نوع من الرجال يكون خان محمد والدار . فخان محمد شخص طروب مهمل مهيأ لكل

(١) أي الزهان على وجهي عملة معدنية .
(٢) الكوبك عملة رسمية تساوي مليا .

مليكونف راسا : « وقد قتل ابى عمه وارادوا قتلى ، فسالتهم ان يتبنونى على اننى اخ » .

– « ما معنى يتبنيك على انك اخ ؟ » .

– « لم اخلق راسى ولم اقلم اظافرى مدى شهرين ثم جئت اليهم . واذنوا فى دخولى لدى امه فاطمة وارضعتنى من ثديها فاصبحت اخا » .

وامكن سماع صوت الحاج مراد من الغرفة المجاورة ، ولما لى الدار نداءه من فوره نشف يديه لتوه ومشى بخطى واسعة . ودخل بهو الاستقبال .

وقال لدى عودته : « انه يطلب اليك المجرء » .
وناول لوريس مليكونف لفيقة تبغ اخرى الى خان محمد المرح وذهب الى بهو الاستقبال .

- ١٣ -

ولما دخل لوريس مليكونف غرفة الاستقبال لقيه الحاج مراد بوجه مشرق .

وسال وهو جالس مستريح على الاريكة : « والان ، هل اواصل الحديث ؟ » .

قال لوريس مليكونف ، « اجل » ، يقينا ، لقد كنت فى الداخل اتحدث الى تابعيك .. وازاف : « واحدهم فتى خفيف الروح » .

فقال الحاج مراد : « نعم ، خان محمد فتى مستهتر » .

– « لقد اعجبني الصغير الوسيم » .

– « آه ، ذلك الدار ، انه صغير ولكنه حازم – قد من حديد ! » .

• وسكتا هنيهة .

– « واذن فعلى ان اواصل الحديث ؟ » .

– « اجل اجل ! » .

– « اخبرتك كيف قتل (الخانات) . حسنا . وبعد ما اغتالهم حمزة ركب الى داخل خانراخ واتخذ قصرهم ماوى له » .

وكانت الخاناشاه هى الوحيدة التى تركت على قيد الحياة . وارسل فى طلبها . فلما عنفته غمز بعينه الى مريده آصلدار الذى طعنها من الخلف وقتلها .

وسال لوريس مليكونف : « ولم قتلها ؟ » .

– « وماذا كان يسعه ان يصنع ؟ .. حيث تذهب الرجلان الاماميتان يتحتم ان تتبعهما الخلفيتان ! لقد افنى الاسرة قاطبة ، وقد قتل شامل الابن الاصغر . طوح به فى وهدة » ...

– « وعلى هذا خضعت كل افاريا لحمزة ، ولكننا – انا واخى – ابينا ان نخضع . وطلبنا دمه مقابل دم (الخانات) تظـاهرنا بالخضوع ، ولكن انحصر تفكيرنا فى كيف نظفر بدمه . وراجعنا جدنا وقضينا بان تترقب الوقت الذى فيه يخرج من القصر ثم تقتله من كمين . وتسمعنا بعضهم وابـلغ حمزة الذى ارسل فى طلب جدى

وقال له : اعلم انه اذا صح ان احفادك يدبرون لى مكروها فستشقق واياهم على رافدة (1) واحدة ، اننى اقوم بعمل الله ولن يصدقتى احد . اذهب ، وتذكر ما قلته لك ! » .

وجاء جدى الى المنزل واخبرناه .

فحزنا امرنا على الا تترث بل نعمل القفلة بالمسجد فى اول ايام العيد . ولم يشارفقلونا ان يشاركوا فيها ، ولكننا - اخى وانا - ظلنا ثابتين .

واخذ كل منا غدارتين وارتيدينا بردتنا وذهبنا الى المسجد . ودخل حمزة المسجد ومعه ثلاثون مريدا . وامتشقوا جميعا سيوفا فى ايديهم ، وراتنا اصلدار مريده المفضل الذى قطع رأس (الخان شاه) وصرخ فينا ان اخلعا بردتيكما ، واتى صوبى . وكان خنجرى بيدى فصرته به وانقضضت على حمزة ، غير ان اخى عثمان كان قد سبق فأطلق عليه النار . كان ما يزال حيا وانقضض على اخى وخنجره فى يده ولكنى عاجلته بضربة على راسه أجهزت عليه . كان هناك ثلاثون مريدا وكنا اثنين ليس غير ، فقتلوا اخى عثمان ، اما انا فقد صددهم ووثبت من النافذة ونجوت .

« فلما ذاع ان حمزة قد قتل ثار الناس جميعا وهرب المريدون ، وقتل من لم يهرب منهم » .

وتوقف الحاج مراد وتنفس فى تناقل .

واستطرد يقول : « كان هذا حسنا جدا ، ولكن فسد كل شيء فيما بعد » .

« وخلف شامل حمزة ، فاوفد الى رسلا يقولون انه ينبغي لى ان الحق به فى مهاجمة الروس ، واذا ابيت فسيدمر خانزاق ويقتلنى .

« فاجبت باننى لن الحق به ولن ادعه يأتى الى ... » .

فسأل لوريس ميليكوف : « ولم لم تذهب معه » .

وعبس الحاج مراد ولم يجب فورا .

« لم أقدر على ذلك ، اذ كانت يدها ما تزالان ملطختين بدم اخى

(1) الرفافة هنا « عرق » خشب يبرز من السفك .

عثمان ودم ابى النزال ، لم اذهب اليه ، فأرسل الى القائد روزن (براءة) ضابط وامرنى بان احكم افاريا . وكاد كل هذا ان يكون على ما يرام لولا ان روزن هذا عين بصفة (خان) قاضى كموخ ، اولا محمد مرزا . وبعد ذلك احمد خان الذى يبغضنى . وكان يحاول ان يطلب « السلطانة الصغيرة » الخانشاه زوجا لولده ، الا انها ابت ان تزوجه اباه ، فزعم اننى تسببت فى هذا .. نعم ، لقد ابغضنى احمد خان واوفد اتباعه ليقتلونى ، ولكنى نجوت منهم .

ثم وشى بى لدى القائد كلوجناو فعزا الى اننى اوصيت الافارين بالا بمدوا عساكر الروس بالخشب ، كما عزا الى اننى لست عمامة - هذه العمامة التى على (ولمس الحاج مراد عمامته) - ومعنى هذا اننى انحزت الى شامل . فلم يصدقه القائد وامر بالا بىسنى احد . ولكن لما ذهب القائد الى تغليس صنع احمد خان ما بداله . فأرسل سرية من الجند لتقبض على وكبولونى بالاصفاد وربطونى الى مدقع .

واستطرد : « وعلى هذا استبقونى ستة ايام ، وفى اليوم السابع حلوا واتاقى وتاهبوا ليأخذونى الى تميزخان شورى . وعهد بامرى لاربعين جنديا مسلحين ببنادق معبأة . فاوثقت يداى ، وكنت أعلم انهم مأمورون بان يقتلوني اذا حاولت فرارا .

« فلما شارفنا (منسوخة) ضاقت السبيل ، وكانت الى يمينها مهواة قد يبلغ عمقها المائة والعشرين ياردة . فلزمت اليمين حتى حافته وأراد جندي ان ينعنى ، فوثبت الى اسفل وجذته معى ، فلقى مصرعه من فوره ، ولكنى بقيت حيا كما ترى . وكسرت ضلوعى ورأسى وذراعائى جميعا ! وحاولت ان اجبو ولكنى شعرت بدوار وأخذلت الى النوم . ثم استيقظت بيلتى ذمى . وراتنى راع ونادى بعض الناس فحملونى الى المحلة . وبرئت ضلوعى ورأسى ، وساقى أيضا وان ظلت قصيرة » . ومد الحاج مراد ساقه المتوية قائلا : « انها مع ذلك ما تزال فى خدمتى ، وهذا خير » .

« وتسامع الناس الخبر واتوا الى . وبرئت وذهبت الى تسلميس . وبايعنى الافاريون من جديد على ان احكمهم » .

واستطرد يقول فى عجب هادىء مطمئن : « فاجبتهم الى ذلك » .

ونهض عجلا واستخرج حافظة من خرج وسحب منها خطابين حال
لونهما وناول لوريس ميليكوف احدهما ، وكانا من القائد كلوجناو ،
قرا لوريس ميليكوف الخطاب الاول فيما يلي :

ايها الملازم الاول الحاج مراد . لقد عملت تحت رياستى وكنت
راضيا عنك وعددتك رجلا طيبا .

« وقد اخبرنى احمد خان انك خائن وانك لبست عمامة (التبعية
لشامل) وتعامل معه . وانك لقتت الناس ان يخرجوا عن طاعة
الحكومة الروسية . فامرت بالقبض عليك واحضارك الى ولكنك
فررت ، ولست اعلم افي مصلحتك هذا ام لا ، كما لست اعلم امدنب
انت ام غير مدنب .

والان استمع الى : اذا كنت مستريح الضمير ، اذا لم تكن قد
ارتكبت وزرا في حق القيصر العظيم فتعال الى ولا تخش احدنا فانا
حاميك ، ولن يقدر الخان على ان ينال منك شيئا ، فهو نفسه تحت
امرتى ، وعلى هذا فليس لديك ما تخشاه . »

واضاف كلوجناو انه دواما كان مقسطا ويحترم كلمته . ونصح
الحاج مراد ان يوافيه .

فلما قرا لوريس ميليكوف الخطاب اخبره الحاج مراد - قبل
ان يناوله الخطاب الثانى - بما كتبه ردا على الاول .

« كتبت بانى لبست العمامة لا اكراما لشامل وانما لخلاص
نفسى ، وبانى لا اود ان اذهب الى شامل ولن يسعنى ذلك لانه
تسبب فى وفاة ابنى واخوتى وذوى قرباى ، غير انى لا استطع
الحلاق بالروس لانهم خدشوا كرامتى (فقد بصق على فى خان زاخ
وغد وانا موثق ولن الحق بقومك حتى يقتل ذلك الرجل) ، وبانى
قبل كل شىء اخشى ذلك الافاك احمد خان . »

وقال الحاج مراد وهو يناول لوريس ميليكوف القرتاس الآخر
الذى حال لونه .

وتلا لوريس ميليكوف : « اجبت على خطايبى الاول فشكرا لك .
تنول انك لا تخشى المسودة وانما تصدك الاهانة التى الحقها بك
كافر ما ، واؤكد لك ان القانون الروسى عادل ، وانك سوف ترى

ذاك الذى جرؤ علم الاساءة اليك ينال جزاءه امام عينيك ، وقد
اصدرت اوامرى فعلا بتقصى الموضوع .

« استمع الى ايها الحاج مراد انا محق فى الا ارضى عنك لانك
لا تتق لا بى ولا بشرفى ، ولكنى اغفر لك اذ اعلم الى اى حد يرتاب
الجبليون عموما . فاذا كنت مرتاح الضمير وكنت قد لبست العمامة
لا لشىء الا لخلاص نفسك فانت محق ، ولك ان تفتح عينك بجسارة
فى عين الحكومة الروسية . واؤكد لك ان ذلك الذى خدش
كرامتك سيقلى جزاءه وسترد عليك املاكك وسترى وتعرف
ما القانون الروسى . والى هذا فنحن الروس ننظر الى الامور بمنظار
آخر ، وانت لم تسقط فى عيننا لان وغدا ما خدش كرامتك .

« وقد ارتضيت شسخصيا ان يلبس الشمرنتيون العمام وانا
انظر الى عملهم على الضوء اللائم ، وعلى هذا اكرر ان ليس لديك
ما تخشاه ، تعال الى مع الرجل الذى يحمل اليك خطايبى هذا وهو
يخلص لى كما انه ليس موالى اعدائك وانما هو صديق لرجل يتمتع
فى للحكومة بحظوة خاصة . »

وفيما يلى ذلك حاول كلوجناو من جديد ان يحمل الحاج مرادا
على ان يجىء اليه .

وبعد ما فرغ لوريس ميليكوف من القراءة قال الحاج مراد :
« ولم اصدق كلوجناو ولم اذهب اليه . بل كان اهم ما يهمنى ان
اتار لنفسى من احمد خان ، وهذا ما لم استطعه عن طريق الروس . ثم
حاصر احمد خان تلميس ورام اسرى او قتلى وكان رجالى اقل من
القليل فلم يتيسر لى طرده . وفى ذلك الوقت بالذات جاءنى رسول
بخطاب من شامل يعد فيه بعونى على هزيمة احمد خان وقتله وحكمى
افاربا كلها فتبصرت فى الامر طويلا ثم ذهبت الى شامل ، ومنذ ذلك
الوقت حاربت الروس حربا متصلة . »

وهنا اورد الحاج مراد كل مفامراته الحربية التى كانت جد كثيرة
والتى كان يعلم بها لوريس ميليكوف تمام العلم . وقد امتازت حملاته
وغاراته جميعا بالسرعة غير المألوفة فى حركاته وبالجرأة فى هجماته
التي كان يتوجها التجاح دائما .

وقال الحاج مراد فى ختام قصته : ولم تكن هناك اية سداقة
يبنى وبين شامل ، غير انه كان يخافنى ويحتاج الى . ولكن حدث

اتفاقا ان سئلت عن سوف يكون اماما بعد شامل فاجبت : (سوف يكون اماما امضانا سيفا) .

ونقل هذا الى شامل وود لو تخلص منى . فارسلنى الى تالصران فذهبت وغنمت الف رأس من الضان وثلاثمائة فرس ، فقال اننى لم أضع صوابا . وعزلنى عن النيابة عنه ، وامرنى بأن أرسل اليه المال كله . فارسلت اليه الف عملة ذهبية . ثم أرسل مرديبه فأخذوا منى كل ما املك . وطلب الى ان أوافيه ، ولكنى كنت أعلم انه يريد قتلى فلم اذهب اليه . ثم أرسل يطلب اسرى فقاومت واسلمت نفسى الى فورونتسوف ، غير انى لم استصحب اسرى . وامى وأزواجى وولدى بين يديه . فقل للسردار بانه ما دامت اسرتى تحت سلطان شامل فما انا بمستطيع شيئا .

قال لوريس ميليكوف : « سأخبره » .

وقال الحاج مراد وهو يختم حديثه : « جاهد ، حاول فى جد ! .. ما كان لى فهو لك ، ولكن أعنى لدى الأمير ! فانا مكبل ، ونهاية الحبلى فى يدى شامل » .

- ١٤ -

وفى العشرين من ديسمبر كتب فورونتسوف الى شرينشوف وزير الحربية ، وكان الخطاب باللغة الفرنسية :

« لم اكتب اليك بالبريد السابق - بها الأمير العزيز - لانى اردت أولا ان أبت فيما ينبغى علينا ان نفعله بالحاج مراد ، ثم انى فى اليومين الأخيرين لم أكن اشعر باننى على ما يرام .

« أنباتك فى خطابى السابق بوصول الحاج مراد الى هنا . لقد وصل الى تفليس فى اليوم الثامن ، وفى اليوم التالى تعرفت اليه ، وفى السبعة الأيام الأخيرة او الثمانية تحدثت اليه وتكرت فيما يسعنا ان نفيده منه فيما يستقبل من الزمان وبخاصة فيما علينا ان نصنع به فى الوقت الحاضر اذ انه معنى جدا بمصير أسرته ، ويقول بكل مظاهر الصراحة الكاملة بانهم ما داموا بين يدى شامل فهو مشلول الحركة وليس فى مكنته ان يقدم لنا اية خدمة أو يظهر لنا اى عرفان بجميلنا تلقاه اللقاء الودى والعفو اللذين شملناه بهما .

« وان حيرته فى أمر أولئك الذين يعزم لتجعله قلنا . ويؤكد لى الأشخاص الذين اخترتهم ليقموا معه بأنه لا ينام الليل ولا يكاد يأكل شيئا ويتابع الصلاة ، ولا يطلب الا ان يؤذن له فى الركوب الى خارج المدينة يرافقه عديد من القوزاق ، وهذه هى التسلية او الرياضة الوحيدة الميسرة له والتي أصبحت ضرورية له بحكم العادة طوال حياته . وهو يأتى الى فى كل يوم ليعرف هل لدى انباء عن أسرته وليطلب الى ان نجتمع كل الأسرى الموجودين بين ايدينا ونقدمهم لشامل على سبيل المقايضة بتلك الأسرة ، وهو كذلك على استعداد لان يبذل بعض المال - وهناك اناس يمكنون له من الحصول على شيء منه لهذا الغرض . وهو لا يفتأ يعيد على : نج اسرتى واتح لى بعد ذلك الفرصة لأخدمكم . (وفى رأيه ان أفضل مكان هو خط سبغيا) . ولئن لم اقدم لكم خدمات جلى فى خلال شهر واحد أدبونى بما ترونه مناسباً . وانا أجيب : بأن كل هذا فيما أرى يبدو عادلا جدا ، وبأن كثيرا منا قد يذهبون حتى الى وجوب عدم الثقة

به ما دامت في الجبال وليست رهينة بين ايدينا وانني ساضع كل شيء في مقدوري لجمع الاسرى الموجودين على حدودنا ، وبانني - حسب قانوننا - لا املك ان ابذل له ما لا يفدي به أسرته بالإضافة الى التسدر الذي قد يستطيع بشخصه ان يجمعه ، الا انني قد استطعت ان اجد بعض الوسائل الأخرى لعونه . وبعد ذلك صارحته بأن شاملا - فيما ارى - لن يفرط تام وبمناسبه السابقة ، وقد يتوعد الحاج مرادا بقتل أمه وأزواجه وبنيه الستة ان لم يعد وسأنته هل يسمعه ان يقول في صراحة ما هو صانع اذا وصله اعلام كهذا من شامل ؟ فرجع عينيه وذراعيه الى السماء وقال ان كل شيء بيد الله الا انه لن يذعن لعدوه اذ هو موثق بان شاملا لن يعفو عنه ، وان يعيش طويلا بناء على ذلك . اما عن اهلاك أسرته فهو لا يظن ان شاملا يتصرف بمثل تلك الرعونة . اولا ليتجنب دفعه الى ان يصبح بعد عدوا أكثر استماتة وخطرا . وثانيا لان في داغستان كثيرين بل اناسا ذوي سلطان عريض يردن شاملا عن مسلك كهذا . وأخيرا ، اعاد مرارا بأنه كيفما كان ما يقضى به الله له في المستقبل فهو لا يعنى في الحاضر بشيء غير فداء أسرته ، وتوسل الى باسم الله ان اكون في عونه وأن اذن له في العودة الى ارباض ششنيا حيث يسعه - بمساعدة قوادنا وموافقته - ان يتصل بعض الاتصال بأسرته وبالانباء المتواصلة عن حالهم وبأمثل الوسائل لتحريرهم . وقال ان كثيرين (بل بعض النواب في تلك المنطقة من أرض العدو) يخلصون له كثيرا أو قليلا وأنه سوف يكون من السهل - بمساعدتنا ، بين جميع السكان الخاضعين لروسيا بالفعل أو المحابدين - توطيد علاقات جد نافعة في ادراك الهدف الذي يحرمه السكنينة ليل نهار والذي يطمئنه بلوغه ويسير له العمل لخيرنا وكسب ثقتنا . وهو يطلب اعادته الى جروزني في ركب من عشرين أو ثلاثين من القوزاق المختارين ، ينفعونه على أنهم حماته من اعاديه وينفوننا على أنهم ضمان حسن نيته .

وستدرك ايها الأمير العزيز انني تحيرت كثيرا بكل هذا لان مسئولية كبرى تقع على عاتقي بعمل ما أنا فاعل . ولاكون طائشا الى أقصى حدود الطيش اذا امنت له امانا تاما . ولكن - لكي نجرده من كل وسائل الافلات - علينا ان نحسه ، وعندى ان هذا يجاقى العدل والسياسة وان اجراء كهذا - ولا مفر من ذبوع خبره

في كل داغستان - ليلحق بنا ضرا عظيما ، فهو يضع منا اولئك الذين يجنحون الآن الى مناواة شامل كثيرا او قليلا ، وكثير ما هم ، ويضيع منا الذين هم يرقبسون في اهتمام كيف تنصرف مع أكثر نشاط الامام شهامة ومجازفة بعد ما التي نفسه الآن مرغما على ان يضع نفسه بين ايدينا . واذا تصرفنا مع الحاج مراد على انه اسير فيضيع كل التأثير الطيب للموقف . فانا اظن بمقتضى هذا انني لا استطع ان اصنع غير ما صنعت ، وان شعرت في الوقت ذاته انني قد أنهم بانني أقترفت خطأ كبيرا اذا جال في رأس الحاج مراد ان يفلت مرة أخرى . ومن العسير ان لم يكن من المستحيل - عند القيام بواجب الخدمة ، وبخاصة اذا كان الموقف معقدا كهذا - اتباع طريق مستقيم بعينه دون التعرض للاخطساء ومن دون تقبل المسئولية . اما عندما بلوح ان طريقا ما هو الطريق المستقيم فيتعين على اتباعه وليكن ما يكون .

واني اسالك ايها الأمير العزيز ان ترفع هذا الى صاحب الجلالة الامبراطور للنظر . واكون سعيدا لو رأى عاهلنا الاعظم ان يصادق على ما وضعت .

وقد كتبت الى القائدين زافودوفسكي وكوزلوفسكي بكل ما كتبت في اعلى هذا كي ارشد الأخير عندما يتصل اتصالا مباشرا بالحاج مراد حذرته من ان يتصرف أو ينتقل الى أي مكان دون رضاه كوزلوفسكي، وكذلك أخبرته بأنه سيكون أولى بنا ثم أولى ان يسير ركبنا مع الحراس ، اذ دون ذلك قد يشيع شائعة باننا نتحفظ به (1) اسيرا ولكنني في الوقت ذاته حملته على ان يعد بالا يذهب الى فردزهنسك ذلك لان ولدي الذي اسلم نفسه له اول الامر والذي يعتبره شامل اخاه في المهدي ليس قائد ذلك الموقع ومن السهل ان ينشأ سوء تفاهم غير مرضي وعلى اية حال فموقع فردزهنسك قريب جدا من مستعمرة تعج بالسكان بينما جروزني ملائمة من كل وجه لاتصاله بأصدقائه ، وهذا ما يرغب فيه .

وبالإضافة الى العشرين من القوزاق الذين اختيروا للازمته بناء على طلبه أرسل ايضا اليوزباشي لوريس ميليوكوف ، وهو ضابط فاضل ممتاز بالغ النجابة يتكلم اللسان التتري ويعرف الحاج مرادا حق المعرفة وبحوز ثقته التامة فيما يظهر . وفي اثناء العشرة الايام التي قضاها الحاج مراد هنا عاش في البيت ذاته مع قائم المقام

(1) تحفظ به : عنى يحفظه .

الأمير طرخانوف الذي له القيادة في إقليم شوشين والذي جاء الى هنا في أمر مرتبط بالعمل وأنه لرجل ذو قيمة حقيقية أثمنته كل الانتعاش ، وقد اكتسب هو ايضا ثقة الحاج مراد ، وعن طريقه وحده - بما أنه يجيد الكلام باللسان التتري ، تباحثنا في أكثر الأمور دقة وسرية . وقد استشرت طرخانوف في شأن الحاج مراد . وهو يوافقني كل الموافقة على أنه ينبغي : اما التصرف بمثل ما صنعت واما لقاء الحاج مراد في السجن وحراسه في اشد تحفظ (اذ لو عاملناه يوما معاملة سيئة فلن يكون من السهل ان نحتفظ به) والا يجب ترحيله عن البلاد كلية . غير ان الحلين الآخرين لن ينجم عنهما فقط تعويض الزايات التي تآثرت لنا من تنازع الحاج مراد وشامل بل لا مصدى عن أنهما سيكبحان أي ازدياد لتعدد الاهلين الحالي على سلطان شامل وتورثهم عليه في المستقبل . ويخبرني طرخانوف بأنه شخصيا لا يشك في صدق الحاج مراد ، وان الحاج مرادا مقتنع بأن شاملا لن يغفر له بل سيأمر بدمه (١) ، برغم أي وعد بالصفو . والشئ الوحيد الذي لاحظته طرخانوف لدى اتصاله بالحاج مراد والذي قد يثير شيئا من التلق هو تعقله بدينه : فهو لا ينكر ان شاملا قد يؤثر في الحاج مراد من هذه الناحية ، ولكنه - كما ذكرت آنفا - لن يقنع الحاج مرادا ابدا بأنه لن يأخذ حياته ، سواء اقربيا كان ذلك ام بعيدا ، وذلك ان عاد الأخير اليه .

هذا - أيها الأمير العزيز - هو كل ما أود ان أثبتك عن هذه القصة فيما يخص شئوننا هنا .

انقل التقرير من تفليس في الرابع والعشرين من ديسمبر من سنة ١٨٥١ وفي عشية السنة الجديدة سلم بريد (اقتضى سوقه اثني عشر حصانا وضرب اثني عشر سائقا حتى ادموا) الى الأمير تشرنيشوف (وزير الحربية في ذلك الوقت) . وفي اليوم الاول من يناير من سنة ١٨٥٢ اخذ تشرنيشوف تقرير فورونتسوف - بين أوراق أخرى - الى الامبراطور نيقولا (١) .

وكان تشرنيشوف لا يعجل الى فورونتسوف بسبب الاحترام العام الذي كان الأخير يتمتع به ، وبسبب ثرائه المريض ، وكذلك لأن فورونتسوف كان ارسقراطيا حقيقيا بينما كان تشرنيشوف - مع ما هو فيه - حديث نعمة ، وبخاصة لأن الامبراطور كان عظيم الميل الى فورونتسوف بصفة خاصة . وعلى ذلك كان تشرنيشوف يحاول في كل فرصة ان يسيء الى فورونتسوف .

وقد نجح في اثارة سخط نيقولا على فورونتسوف - عندما قدم تقريرا عن شئون القسوقاز - وذلك لأن الجبلين ابادوا فصيلة قوقازية صغيرة عن آخرها تقريبا . بسبب اهمال أولئك الذين كانوا في قيادتها . وعزم الآن على ان يعرض الخطوات التي اتخذها فورونتسوف - بالإضافة الى الحاج مراد - تحت ضوء غير ملائم . واراد ان يوحى الى الامبراطور ان فورونتسوف لا يفتأ يحصى الاهلين بل يعاملهم بالحلم لضر مصلحة الروس وأنه لم يراع الحكمة عندما اذن للحاج مراد في البقاء بالقوقاز ، اذ هناك أسباب جمة تمثت على الارتياح في أنه لم يجرى اليها الا لستطلع وسائل دفاعنا ، وعلى هذا فمن الخير ان نبعده الى آسيا الوسطى ، على الا نستخدمه الا بعد انقضاء أسرته من الجبلين ، وبعد ان يصبح من المستطاع ان تنقذ انفسنا بولائه لنا .

ولم تحقق خطة تشرنيشوف الا لسبب واحد وهو ان نيقولا في يوم رأس السنة كان منحرف المزاج بصفة خاصة ولم يكن ليقبل

(١) المقصود هنا هو نيقولا الاول « بن بطرس الاول ، قيصر روسيا من ١٨٢٥ الى ١٨٥٥ الذي اخفق في حرب القرم ضد تركيا وذلك بعد تدخل فرنسا وانجلترا .

(١) المعلم « بطحة فسكون « المرت . اما كلمة « الاعلام « فمعناها القبر . ومنها المعلم أي القبر . وهذا من الخطأ الشائع حتى في المحاكم ..

من اى انسان - على سبيل التحفظ - اى اقتراح ايا كان ، ولا سيما من تشرنيشوف بالذات ، وانما كان يطيقه فحسب لانه كان يقدر الاغنى عنه مؤقتا ، ولكنه يراه وغدا . ذلك أن نيقولا كان يعلم بمساعيه فى أثناء محاكمة الديميسبريين (١) كى يضمن اداة زخارى تشرنيشوف ، كما كان يعلم بمحاولة استخلاص ثروة زخارى لنفسه . وعلى هذا فالفضل فى بقاء الحاج مراد بالقوقاز انما هو لانحراف مزاج نيقولا ، ولأن ظروف الحاج مراد لم تتغير ، كما كان ممكنا أن تتغير لو أن تشرنيشوف رفع تقريره فى وقت آخر .

كانت الساعة التاسعة والنصف عندما ساق عبر مدخل قصر الشتاء - من خلال ضباب الصباح البارد (وقد اشار مقياس فهرنهايت للحرارة الى درجة ١٣ تحت الصفر) - الحوذى البدن الملحى لتشرنيشوف جالسا على كرسي مركبة الجليد الصغيرة التى تشبه المركبة التى طاف بها نيقولا ، وعلى راسه طاقية من القطيفة الزرقاء حادة الزوايا على شكل الوسادة ، وأوما راسه ابعاءة الود الى خدنه (٢) حوذى الأمير دلجوروكى الذى - بعد أن أوصل سيده الى القصر - ظل هو ذاته ينتظر خارجه منذ وقت طويل فى سترته الضخمة الأهداب المنجدة وهو جالس على الأعمدة (٣) يفرك كفيه الخدرتين (٤) احدهما بالأخرى وكان تشرنيشوف يرتدى عطافا طويلا ذا قلنسوة واسعة وبنقطة (٥) من السمور (٦) الفضى غزيرة الوبر وعبعة رسمية ذات ثلاثة أركان وربش ديك . وطرح خلفه غطاء العربة المصنوع من جلد الدب وحرر فى عناية قدميه المتفتقتين (٧) اللتين لم يلبس فوقها خفين (وكان يباهى بأنه لم يلبسهما قط) ، وصل وبعمازبه فى شجاعة مقنعة ، وصعد السلم الذى يغطيه السجاد ، وعبر باب الايران الذى فتحه له البواب على مصراعيه فى احترام ودخل الايران وبعد خلع عطافة هرع

(١) فى ديسمبر من سنة ١٨٢٥ قام بعض رجال الجيش مستهدين حصول دوسيباعلى دستور، وذلك عند تبوء نيقولا الاول العرش

- (٢) الخدن : الحبيب والصاحب للمذكر والمؤنت .
(٣) الاعنة : جمع عنان بكسر أوله وهو سير اللجام .
(٤) الخدر : بفتحة فسكرة ما يسوونه بالنمل .
(٥) البنقة : ما يعرف بالياقة .
(٦) السمور : بفتحة فشدنة حيوان يشبه كلب البحر .
(٧) قلقت : ارتعد من البرد .

خادم قديم من خدام القصر الى تناوله ذهب الى امرأة وخلع فى عناية القمعة عن شعره المستعار المجدد . ونظر الى نفسه فى المرآة ، وسوى الشعر على صدغيه والخصلة على اعلى جبهته بحركة الفتها يده العتيقتان وسوى صليبه وأنشوطتى كتفى بذلته الرسمية (اسبيلتنيه) ذاتى العلامات العريضة ، ثم صعد السلم الصاعد فى رفق والمغضى بالسجاد ، ورجلاه العتيقتان اللتان لا يعول عليهما كثيرا تصعدان فى وهن الدرج القليل الغور ، مارا على خدم القصر الذين يرتدون حلل التشرريف والذين يقفون حائى الرؤس فى خضوع . ودخل تشرنيشوف غرفة الانتظار فلقبه فى احترام باور من ياورى الامبراطور (عين حديثا) فى بذلة رسمية جديدة متألقة ذات انشوطتين و (اسبيلتيتين) ، وكان وجهه ما يزال غضا متوردا وكان له شاربان صغيران اسودان ، والشعر الذى على صدغيه مشط فى اتجاه عينيه على غرار الامبراطور .

فحياة الأمير واسيلى دلجوروكى نائب وزير الحربية وقد اتسم تعبير السام على وجهه القبي الذى كانت تزينه مثلهم عارضان وشارب وصدغان مشط على غرار نيقولا .

« الامبراطور ؟ » قال هذا بالفرنسية تشرنيشوف مخاطبا الياور متحبا بنظره فى استهفام نحو الباب المؤدى الى المكتب .

فاجاب جاورس بالفرنسية : « جلالته دخل توا » ، وقد تجلى انه يتلذذ من جرس صوته وانه كان ينقل قدميه بخطى رقيقة مستقرة حتى انه لو وضع فوق راسه قدح من الماء ما أريق منه شيء ، ثم دنا من الباب واحتفى ، كل جسمه يفيض بالتجلة للموضع الذى كان عى وشك زيارته .

وفى تلك الاثناء فتح دلجوروكى ليستوثق من انها تضم الاوراق اللازمة ، واخذ تشرنيشوف - وهو عابس - بخطو ذهوبا وجيئة ليعيد الى قدميه الخدرتين الدورية الدومية ، كما اخذ يفكر فيما هو على وشك ابلاغه للامبراطور . وكان واقفا الى جوار باب المكتب عندما انفتح مرة اخرى . وخرج الياور - ولعله كان أكثر تالقا واحتراما من ذى قبل ، ودعا - وهو يومئ - الوزير ونائبه الى الدخول .

وقد اعيد بناء قصر الشتاء فى اعقاب حريق حدث قبل ذلك بوقت مديد ، الا أن نيقولا كان ما يزال يشغل الغرف التى فى الطيقة العليا . وكان المكتب الذى يتلقى فيه تقارير وزرائه وغيرهم من كبار

كى يعثر على الخادم فلم يجده هنسالك فتجههم ودفح الباب بنفسه فانفتح وجعل السيدة تدخل اولا .

قالت المتعنة بالفرنسية : « هنا بعضهم ! » وتوقفت فجأة .

وكانت المقصورة مشغولة فعلا ، اذ جلس على الأريكة الصغيرة المغطاة بالقطيفة في تلاصق ضابط من الأهلن (١) وشابة مليحة شقراء الشعر جمعدته في رداء تنكرى ، وكانت قد خلعت النقاب عن عينيها - فلما لمحت وجهه نيقولا المتضرب ينجذب الى اقصى ارتفاعه سارعت الى ارجاع النقاب مكانه . اما ضابط الأهلن فقد تصلب من الخوف وتطلع الى نيقولا بعينين ثابتتين دون ان ينهض من فوق الأريكة .

ولما كان نيقولا قد الف الرعب الذى يبعثه فى الآخرين فان هذا الرعب كان دائما من دواعى سروره . وكان يحب احسانا من باب المطابقة - ان يذهل اولئك الغساقين فى الرعب بان يوجه اليهم كلمات رقيقة ، وهذا ما فعله فى تلك المناسبة .

فقال الضابط : « حسنا ايها الصديق ! أنت اصفر منى ويصح ان تتنازل لى عن مكانك » .

فقفز الضابط فوق قدميه واصفر ثم احمر وكاد ان ينثنى ، نضهين ثم تبع رقيقته فى صمت الى خارج المقصورة وترك نيقولا مع سيدته .

وتبين انها مليحة عذراء فى العشرين من عمرها وانها ابنة مربية اطفال سويدية . وقد قصت على نيقولا كيف انها - عندما كانت صغيرة جدا - وقعت فى حبه من واقع صورته وكيف عبده وكيف حزمت أمرها على ان تسترعى التفاته باى ثمن ، ثم قالت انها افلحت الآن وهي لا تبتغى شيئا اكثر من ذلك .

وأخذت الفتاة الى المكان الذى اعتاد نيقولا ان يلقي فيه النساء هناك صرف معها اكثر من ساعة .

فلما عاد الى غرفته فى تلك الليلة ورقد على الفراش الصلب الضيق الذى كان يعتز به ، ولما غطى نفسه بالعطاف الذى اعتبر ان له شهرة قبعة نابليون (وتحدث عنه على انه كذلك) ، مضى وقت طويل قبل ان يستطيع النوم اذ فكر تارة فى معنى الخوف والزهو الذى ارتسم على الوجه الأبيض لتلك الفتاة وطسورا فى منكبى حظيته تلدوفا الملبئين الشديدين ثم قابل بين الاثنين . ولم يدخل رأسه مرة أن فجور رجل متزوج شئء مرذول ، ولو ان امرأ عدله من أجل ذلك لدعش ايما دعش . ومع أنه كان مقتنعا بأنه تصرف

(١) الأهلن : الخيالة حاملو المزاريق فى الجيش الروسى والامالى .

الموظفين غرفة جد سامقة (١) ذات اربع نوافذ عريضة . وكان معلقا على الواجهة الامامية للغرفة صورة كبيرة للإمبراطور اسكندر الاول ونصب مكتبان بين النوافذ ، وصفت مقاعد عديدة على طول الحوائط وكان يتوسط الغرفة منضدة ضخمة للكتابة والى امامها كرسى ذو مساند نيقولا ، كما كانت هناك كراسى اخرى للذين يسمح لهم بالثول بين يديه .

وجلس نيقولا الى المنضدة فى سترة سوداء ذات اشطرة معدنية على الكتفين ولكن من دون (اسبلات) . وكان يدهن الضخم - بمعدهته البالغة النمو الزومومة (٢) من الداخل - ملقى الى خلف ، وهو يتفرس فى القادمين الجدد بعينين ثابتين لا حياة فيهما . وكان وجهه الطويل الشاحب - بجهته الضخمة التراجعة بين خصلتى الشعر المشطتين الى امام الوصولتين فى مهارة بالشرع المستعار الذى يغطى رقعته الصلواء - كان وجهه هذا باردا حجريا فى ذلك اليوم بصفة خاصة . وبدت عيناه الدائمنا الاعتنام اكثر بلادة من المعتاد . اما شفتان المضبوطتان من تحت شاربه المقصوص (٣) الى أعلى والبنقة العالية التى تقيم رقبته وخدها السمينتان اللذان حلقتا منذ هنيهة واللذان ترك عليهما قليل من شعر العارضين متناسق على شكل المى الحثسو . فاما كل هذا فقد اكسب صدره كلال مرده الى انه فى الليلة السابقة حضر حفلة تنكرية ساخرة ، وبينما كان يطوف كعادته - فى بدلة حرس الفرسان وعلى خوذته طائر بين الجمهور الذى تراحم حول هيئته الضخمة الواثقة من نفسها والتى كان يفسح لها الطريق فى استخذاء (٤) - اذ ذاك قابل من جديد المتعنة التى انارت فى الحفلة التنكرية الساخرة السابقة بياض لونها وجمال جسدها ونعومة صوتها شهوته الهرمة . وفى تلك الحفلة السابقة اختفت بعد ما وعدته باللقاء فى اليوم التالى .

على انها فى حفلة الامس جاءت ، فلم يتركها تذهب هذه المرة بل اقتادها الى المقصورة المعدة خصيصا لهذا الغرض حيث يستطيع ان يخلو اليها . ولما بلغ نيقولا باب المقصورة فى سكون تلفت حوله

(١) سامقة : اى بالغة الارتفاع .
(٢) زم : ريب وشده .
(٣) عطن الشعر : ضفره او نمله وشده .
(٤) اى فى حياء .

تصرفا صائبا فقد تخلف نوع من كدر ما بعد المذاق ، ولكي يخمد هذا الشعور استمسك بأهداب فكرة انزلت فيه السكينة ، وهي فكرة عظيمة شخصه .

ورغم أنه نام متأخرا الى هذا الحد فقد نهض قبل الثامنة . وبعد أن باشر زينتته على النحو المعتاد بأن ذلك بالثلج كل بدنه الكبير الذي حسنت تغذيته ، وصلى (مرددا تلك الصلوات التي اعتاد عليها منذ طفولته وهي : صلاة العشاء ، وقانون الإيمان الرسولي ، والصلاة الربية دون أن يعلق معنى للكلمات التي فاه بها) . وخرج عبر الرواق الأصفر للقصر الى رصيف النهسر في عطافه وقبعته الحريبتين .

وعلى هذا الرصيف لقي طالبا بمدرسة الحقوق في زيه الرسمي ، وكان في مثل بدانتته ، ولم لاحظ نيقولا الزى الرسمي لتلك المدرسة التي لم يكن يحبها (بسبب حرية الفكر التي اتصفت بها) تجاهه ، ولكن لطف كدره قوام الطالب وأسلوب الجدل الذي به وقف منتصبا ليؤدى التحية وقد شد في مباهاة مرفقه شدا .

قال . « اسمك ؟ » .

« يولوزيتوف يا صاحب الجلالة الامبراطورية » .

« ... فتى وسيم ! » .

وظل الطالب واقفا ويده مرفوعة الى قبعته .

وتوقف نيقولا .

« أتود أن تدخل الجيش ؟ » .

« ابدا ابدا يا صاحب الجلالة الامبراطورية » .

« أحق ! » وانثنى نيقولا واستطرد يمشي ، واخذ ينطق في صوت عال أول ما مر برأسه من كلم .

وردد مرات عديدة : « كيرفانين ... كيرفانين ... » (وكان هذا هو اسم فتاة الأمس) . « فظيع .. فظيع .. » ولم يفكر فيما كان يقول ، وإنما كان يخمد شعوره بالاستماع الى الكلم .

وقال - وهو يحس بعودة سخطه السابق : « أجل ، وماذا تصبح روسيا بدوني ، ماذا تصبح بدوني ، لا روسيا وحدها بل أوروبا ؟ »

وبذكر ضعف صهره ملك بروسيا وغبائه وهز رأسه .

وفيما كان عائدا الى الرواق الأصفر رأى عربة هيلانة بافلوفنا (1)

(1) أرملة ميخائيل أشي نيقولا ، وهي امرأة بارعة تربت تربية عالية وكانت تسمى بالعلوم والفنون والشئون العامة .

دندون من مدخل سانيكوف الى القصر مع خادم يلبس كسوة رسمية حمراء .

وكانت هيلانة - في نظره - تمثل تلك الطبقة التافهة من الناس التي تجادل لا في العلوم والشعر فحسب بل حتى في أساليب حكم الرجال زاعمة أن في وسعهم أن يحكموا أنفسهم خيرا مما يحكمهم هو (نيقولا) ! وكان يعرف أنه مهما أسرف في سحق مثل هؤلاء الناس فم يعاودون الظهور المرة بعد المرة ، وتذكر اخاه ميخائيل بافلوفتش الذي توفي قبل ذلك بوقت ليس بالطويل ، فتسلط عليه شعور الحزن والغيظ ، وفي عبوس معتم أخذ من جديد يهمس بأول ما مر بذهنه من كلم ، ولم يتوقف عن فعل ذلك الا عندما دخل القصر ثانية .

فلما وصل الى جناحه مهسد شعر عارضيه وصدغيه والشعر المستعار الذي يغطي رقنعه الصلعاء ، وعقص شاربه الى اعلى قبالة المرأة ثم ذهب رأسا الى المكتب الذي يتلقى فيه التقارير .

وهذا باستقبال تشرنيشوف الذي فهم في الحال من وجهه ، وبخاصة من عينيه ، أن نيقولا منحرف الزواج بصفة خاصة في ذلك اليوم ، ولما كان يعلم بمغامرة الليلة الماضية أدرك السبب . وبعد أن حياه نيقولا في فتور ودعاه الى الجلوس صوب اليه نظيرة فاترة .

وكان أول أمر عرضه تشرنيشوف اختلاص وقع من موظفي التعمينات كشف أمره توا . وتلا ذلك حركة الجنود على حدود بروسيا ، ثم جاءت قائمة الجوائز التي ستوزع في السنة الجديدة على بعض أناس سقطت أسماؤهم من قائمة سابقة ، ثم تقرير فورونتسوف عن الحاج مراد ، وأخيرا مسألة مكدره تخص طالبا من المجتمع الطبي حاول أن يعتدى على حياة أستاذه .

وسمع نيقولا التقرير عن الاختلاص صامتا مطبق الشفتين ، ويده الكبيرة البيضاء - وحول اصبعها الرابع خاتم واحد - تنقر على بعض أفوخ من الورق ، وعيناه مصوبتان في ثبات على جبهة تشرنيشوف وعلى خصلة الشعر التي تملوها .

وكان نيقولا مقتنعا بأن الجميع قد سرقوا ، وكان يعلم أن عليه أن يؤدب جميع موظفي التعمينات الآن وقرر أن يرسلهم ليشتغلوا عساكر في الجيش ، ولكنه كان يعلم كذلك أن هذا لن يمنع أولئك الذين يخلفونهم من أن ينحوا نحوهم . فلقد كان من خصائص الموظفين

ان يسرقوا ، ولكن من واجبه ان يعاقبهم على فعل هذا . وبالرغم من أنه كان متعبا من جراء هذا الواجب فقد داومه في اخلاص . قال : « يبدو أن في روسيا رجلا شريفا واحدا » .
وفهم تشرنيشوف من فوره ان ذلك الرجل الشريف الاوحد هو نيقولا نفسه ، وابتسم ابتساما الموافقة .
وقال : « يبدو ان الأمر كذلك يا صاحب الجلالة الامبراطورية » .
فقال نيقولا : « دعها ، سابدي فيها قرارا » . واخذ نيقولا الوثيقة ووضعها على الجانب الأيسر من المنضدة .
ثم تكلم تشرنيشوف عن الجوائز التي ستمطى وعن تحريك الجيش الى حدود بروسيا .

والقى نيقولا نظرة على القائمة وشطب بعض الاسماء ثم اصدر في اختصار وحزم أمرا بتحريك فرقتين الى حدود بروسيا . ولم يستطع ان يفكر لملك بروسيا منحه شعبيه دستورا بعد حوادث سنة ١٨٤٨ (١) وعلى هذا فبينما كان يعبر لصوره في الخطابات عن اطيب المواظف الودية حسب ان من الضروري الاحتفاظ بجيش بالقرب من الحدود لوقت الحاجة ، وقد تدعو الحاجة الى استخدام أولئك الجند لحماية عرش صهره اذا نار شغب بروسيا (كان نيقولا يتوسم استمدادا للتمرد في كل مكان) استخدم الجند لقمع الثورة في المجر قبل ذلك بوضع سنوات ، وكان من مزاياها اعطاء المزيد من الودن والتأثير لمثل النصيحة التي قدمها الى ملك بروسيا .
وفكر من جديد : « أجل ، وكيف تصبح حال روسيا الآن ان لم يكن انا هنا ؟ »

ثم قال : « حسنا ، وماذا هناك ايضا ؟ » .
فقال تشرنيشوف : « بريد من القسوقاز » وتحدث عما كتبه فوروتنسوف عن استسلام الحاج مراد .
فقال نيقولا : « عال عال ، بداية حسنة ! » .
قال تشرنيشوف : « جلي ان الخطة التي دبرتها جلاتك اخذت ثوتى اكها » .

وكان هذا التأمين على مواهب نيقولا في الخطط الحربية يسره بصفة خاصة لانه - وان افتخر بتلك المواهب عليهم - كان يعلم

(١) كان فردريك غليوم الرابع ملك بروسيا قد الف في سنة ١٨٤٧ مجلسا يضم مندوبين الجالس المحلية . وفي سنة ١٨٤٨ قامت ثورة قمع شعبه دستورا جديدا في تلك السنة ثم لم يلبث في سنة ١٨٥٠ ان شكل برلمانا من مجلسين .

في قرارة قلبه ان لا وجود لها في الحقيقة ، وهو يرغب الآن في ان يسمع المزيد من التناء المسهب على نفسه .
وسال : « وما تعنى ؟ » .

- « اعنى انه لو نفذت خطط جلاتكم من قبل ولو تحركنا الى الامام في تودة وثبات وجدنا لنا الغابات واتلفنا مواد الطعام لكان القوقاز قد خضع منذ امد بعيد وانا اعزو استسلام الحاج مراد كلية الى اقتناعه آخر الأمر بانهم لن يستطيعوا الاستمرار في المقاومة . »

قال نيقولا : « صحيح » .

ومع ان خطة التقدم التدريجي في ارض العدو عن طريق جندلة الغابات واتلاف مواد الطعام كانت للأمولوف ووليا مينوف وكانت مناقضة تماما لخطة نيقولا الخاصة التي تقضي باغتصاب مقر شامل وتدمير وكر اللصوص - وهي الخطة التي أنفذت بمقتضاها تجريدة دار حوني في سنة ١٨٤٥ التي منيت بخسائر كثيرة في الأرواح - مع هذا نسب نيقولا لنفسه كذلك خطة التقدم البطيء وجندلة الغابات وتدمير البلاد بشكل منظم . ويبدو ان هذا الاعتقاد - وهو ان خطة التقدم البطيء (عن طريق جندلة الغابات بشكل منظم وتدمير مواد الطعام) هي خطته - لا بد ان يكون قد استتبع اخفاء الحقيقة ، والحقيقة هي انه قد اصر على ارسال تجريدات مناقضة لذلك كل المناقضة في سنة ١٨٤٥ . ولكنه لم يفهما بل كان يفاخر بخططة سنة ١٨٤٥ وبخطة التقدم البطيء وان تناقضت الاثنان . وقد بلغ به اللق الطرد الوقح الذي يزجه له كل من حوله برغم الحقائق - الى حال لا يستطيع معها ذلك ان يرى تناقضه أو ان يقبس اعماله واقواله بالواقع والمنطق او حتى بالادراك البسيط ، ولكنه كان مقتنعا كل الاقتناع بان كل أوامره - مهما كانت غير معقولة وغير عادلة ومتبادلة التناقض - متعادلة متبادلة الاتساق ، لا لسبب الا انه هو الذي اصدرها . وكان قراره في المسألة التي عرضت عليه بعد ذلك - وهي مسألة طالب المجمع الطبى - من هذا النوع غير المعقول .

وكانت المسألة كما يلي : امتحن ثالث مرة شاب رسب في امتحانه قبل ذلك مرتين . فلما لم ينجحه الممتحن من جديد اعتبر الشاب - الذي اخلت اعصابه - ان هذا ظلم . واخطف مدينة من فوق المنضدة ، في نوبة اشتداد الاضطراب ، وانقض على الأستاذ واصابه

عدة اصابت تافهة .

فسأل نيقولا : وما « اسمه ؟ » .

— « بوهزوفسكى » .

— « بولندى ؟ » .

فأجاب تشرنيشوف : من « أصل بولنسى ، وكاثوليكي ، روماني » .

تجهم نيقولا — لقد امكن الاساءة الى البولنديين . ولكي يسوغ هذه الاساءات كان ينبغي له ان يوقن ان كل البولنديين سفلة ، فاعتبرهم كذلك ، وكرههم بنسبة الشر الذي انزله بهم .

وقال وهو يغمض عينيه ويحنى راسه : « انتظر قليلا » .

ولما كان تشرنيشوف قد سمع نيقولا اكثر من مرة يقول هذا ، علم ان الامبراطور عندما يتحتم عليه ان يتخذ قرارا ما لم يكن يلزمه

الان ان يركز انتباهه بضع لحظات ، فتزهه الروح ويتمثل له احسن حل ممكن كان صوتا داخليا قد املى عليه ما يفعل ، وكان يفكر في تلك الاونة كيف يرضى كل الارضاء شعور العداء نحو البولنديين

الذي اثارته هذه الحادثة في نفسه واوحى اليه الهاتف الداخلى الذي اثاره الواجب . فاخذ التقرير وكتب على هامشه بخط كبير فيه

ثلاث غلطات (1) املائية : « ويستحق الموط ولكن ليست عندنا والحمد لله عقوبة الایعدام ، وليس لى ان ادخلها . وقعوا عليه اثنتى

عشرة مرة عقوبة التهزيق العسكري بين صفين من الف جندى (2) — « نيقولا » .

ويوقع مع اضافة تنميته الضخم ضخامة غير طبيعية .

ولقد كان نيقولا يعلم ان اثنتى عشر الف ضربة لم تكن تقط موتا محققا مع التعذيب بل كانت قسوة فوق الطاقة ، اذ ان خمسة

الآف ضربة تكفى لقتل اقوى رجل . ولكن كان من دواعى سروره ان يكون قاسميا بلا رحمة كما كان من دواعى سروره ان يظن انا

الثمينا عقوبة الموت في روسيا .

وبعد ما كتب قراره في شأن الطالب دفعه عبر المنضدة الى تشرنيشوف .

وقال : « هاك ، اقراه » .

(1) حرص المترجم على ان تكون الاخطاء في الترجمة العربية نيبا يماثلها من اصلها الانجليزى .

(2) لخصاص عسكري يقضى بان يبر اللذب بين صفين من المسارك فيهربه كل منهم بوهز ، وحللا التقليد غير مستعمل في مصر .

ففره تشرنيشوف وحنى راسه ليعبر عن دهشته واحترامه لحكمة القرار .

واضاف نيقولا : « نعم ، وليحضر جميع الطلبة الى ارض التدريب في اثناء العقوبة » .

وجال في خاطره . « سيفيدهم هذا ! سامحو الروح الثورية وسأجنتها من جذورها ! » .

فأجاب تشرنيشوف : « سينفذ » . وبعد توقف قصر عدل الخصلة التي تعلو جبهته وعاد الى التقرير القوقازى .

— « ماذا تأمرنى ان اكتب جوابا على رسالة فورونتسوف العاجلة ؟ » .

فأجاب نيقولا : « ان يثبت على خطى من تدمير المساكن وموارد الطعام في ششينا وان يضاقهم بالفارات » .

وسأل تشرنيشوف : « وما اوامر جلاتكم بالاضافة الى الحاج مهاد ؟ » .

— « يقول فورونتسوف انه يود ان ينتفع به في القوقاز » .

قال تشرنيشوف متفاديا نظيرة نيقولا : « الا بنجم عن ذلك خطر ؟ اخشى ان تكون ثقة الامير فورونتسوف اكثر مما ينبغي له » .

واستفهم نيقولا في نشاط ليكشف غرض تشرنيشوف من تقديم قرار فورونتسوف تحت ضوء غير ملائم « وانت ... ما تظن ؟ » .

— « كان لى ان اظن ان الامن ابعاده الى روسيا الوسطى » .

قال نيقولا متكهما : « كان لك ان تظن ، ولكنى انا لا اظن ، واوافق فورونتسوف . اكتب اليه على هذا الاساس » .

قال تشرنيشوف : « سينفذ » — ونهض وحنى نفسه خارجا .

وكذلك حتى دلجوروكى نفسه خارجا ، بمسد ان فاه في اثناء الاجتماع بكلمات قليلة فقط (جوابا على سؤال من نيقولا) في

شأن حركة الجيش .

وبعد تشرنيشوف استقبل نيقولا (بيبيكوف) الحاكم العام للأقاليم الغربية . وبعد ان ابدى موافقته على التدابير التي قام

بها بيبيكوف ضد الفلاحين المتمردين الذين رفضوا اعتناق المذهب الكاثوليكي ، اصدر امره بان يدفع اولئك الذين لم يدعنوا ، الى المحاكمة امام مجلس عسكري وبعدل هذا عقوبة التهزيق العسكري بين صفين من الجند . وامر ايضا بارسال رئيس تحرير احدى الجرائد الى الخدمة العسكرية لانه نشر بيانا عن بضعة آلاف من

فلاحى الحكومية الى المزارع الإمبراطورية .
قال نيقولا : « أنا أصنع هذا لأنى أحسبه ضروريا ، ولن أسمع
بمناقشة » .

وأدرك بيبكوف فداحة الأمر الخاص بالفلاحين من اليونانيين (1)
وظلم تقل فلاحى الدولة (وهم الفلاحون الوحيدون الأحرار فى
تلك الأيام) الى التاج - وهذا يعنى جعلهم عبيدا للأسرة الإمبراطورية
- إلا أنه كان من المستحيل إبداء الاستنكار . إذ أن عدم الموافقة على
قرار نيقولا معناه الأكدى فقد ذلك المركز اللامع الذى أنفق بيبكوف
أربعين عاما حتى ناله - والذى يستمتع به الآن . وعلى ذلك أحنى
فى خضوع رأسه الأدكن (الذى مسه الآن فعلا اثر من اللون
الرمادى) ليدل على اذعانه واستعداده لتنفيذ المشيئة العليا
القاسية المجردة من الانسانية والشرف .

وبعد أن صرف نيقولا (بيبكوف) تعطى فى شعور من أحس
القيام بواجبه ، وبلغ ساعة الحائط ثم ذهب ليتأهب للخروج .
وبعد أن لبس بدلة رسمية ذات (اسبيلطين) وأوسمة ووشاح
قصد الى بهو الاستقبال حيث ينتظر قدومه فى قلق أكثر من الف
شخص : رجال فى بذلاتهم الرسمية ونساء فى أثواب أنيقة خفيفة
الصدر ، وقد وقفوا جميعا فى الأماكن التى خصصت لهم .

وخرج اليهم بنظرة فائرة فى عينيه ، متمدد الصدر ، نائى المدة
من فوق أحزمها ومن تحتها . ولما شعر بأنظار الجميع تتركز عليه
فى رعدة ومدلة زاد فى اصطناع هيئة المظفر . وكلما التقت عيناه
بأولئك الذين عرفهم - وتذكر شخصياتهم - توقف ووجه اليهم
كلمات قليلة ، باللسان الروسى تارة وباللسان الفرنسى طورا ورشقه
بعينه الباردة الجامدة مصعبا الى ما يقولون .

وبعد أن تلقى كل تهنات السنة الجديدة انتقل الى الكنيسة حيث
رحب به الله وحده - عن طريق عبده القساوسة - كما يفعل أهل
هذه الدنيا (2) . وقد تقلبها نيقولا كما ينبغى له ، بالغا ما بلغ كلاله
من هذا الترحيب وذاك الحمد . وكان كل هذا كما ينبغى لأن خير
العالم أجمع وسعادته يعتمدان على شخصه . ورغم أنه كان تعباً لم
يرض مع ذلك أن يرض بمساعدته على العالم .

(1) يعترف اليونانيون بـ « بابا » روما وإن كانوا فى بعض الشئون الأخرى على وفاق
مع الكنيسة الأورثوذكسية الروسية اليونانية .

(2) بلغ تهكم المؤلف على القيصر أقصاه فى العبارتين السابقتين واللاحقة .

وعندما بدأ فى آخر الصلاة شماس الكنيسة - ذو الحلة الفاخرة
والشعر الطويل الذى جسد وعنى تمشيطه - ترتيله (سنوات
عديدة) التى حفظها عن ظهر قلب جوقة المرتلين السنية ، عند ذلك
تلقت نيقولا حوله ولحظ نيلودفا بمنكبها الرقيقين واقفة الى جوار
النافذة ، وبعد أن قارنها بفتاة الأمس حكم لصالحها .

وبعد القداس ال (ماس) (1) ذهب الى للإمبراطورة وصرف
دقائق معدودات فى حضن الأسرة لاهيا مع الأطفال ومع زوجته . ثم
عبر الأرميتاج (2) وزار فلكونسكى وزير البلاط ، وأمره بأن يدفع من
اعتماد معين معاشا سنويا لام فتاة الأمس . ومن هناك تنزه فى
مركبته كالمعتاد . وفى تلك الليلة قدم العشاء فى بهو بومبيباي (3) .
وقد دعى - الى جانب أنجال نيقولا وميخائيل - البارون ليفن
والكونت زهيفسكى ودولجوركى وسفير بروسيا وياور ملكها .

وفى انتظار ظهور الإمبراطور والإمبراطورة جرى حديث مسل
بينهم البارون ليفن والسفير الروسى فى شأن الأخبار المزعجة الواردة
من بولندا (وكان باللغة الفرنسية) .

وقال ليفن : « بولندا والقوقاز هما قرحتا روسيا . يلزمنا قرابة
مائة الف رجل فى كل من هذين القطرين » .

فأعرب السفير عن دهشة مصطنعة من أن تكون الحال كذلك .

وبدا السفير : « تقول ان بولندا ... » .

- « أجل أجل ، لقد ضرب مترنيخ (4) ضربة معلم عندما خلف لنا
متاعبها » .

وعند هذا دخلت الإمبراطورة براسها المرتمش وابتسامتها المثبتة
يتبعها نيقولا .

وفى أثناء العشاء تكلم نيقولا عن استسلام الحاج مراد ، وقال ان
الحرب فى القوقاز الآن يجب ان تنتهى قريبا نتيجة للإجراءات التى
يقوم بها ناهد من مجال الجبليين ، وذلك بجندلة غاباتهم وبخطته

(1) احتفال دينى لكنيسة روما بذكرى اخر عشاء ليسوع المسيح .

(2) الأرميتاج متحف شهير ودمرض صور فى لينينجراد ببطرسبورج فى جوار قصر

الشمسة ..

(3) نسبة الى مدينة قديمة فى سفح بركان فيزوف بايطاليا وكانت مرتما لابنياء

الرومان ، وقد ردمتها الحمم وبقيت ثمرية الحمم ابتداء من سنة 1748 وكان

ذلك من حظ علماء الآثار ..

(4) مترنيخ هو السياسي النموسوى القذ الذى زوج نابليون بونابارت من ماري لويز

والذى أصبح بعد سقوط الإمبراطورية ينطقى الحلف المقدس فيصل أوروبا « 1773 -
1809 » ..

وامتثالا لهذا الأمر من نيقولا شنت في الحال غارة على ششنيا في ذلك الشهر نفسه - يناير سنة ١٨٥٢ .

وتكونت الفصيلة التي امرت بشن الغارة من اربع كتائب من المشاة وسريتين من القوزاق وثمانية مدافع . وسار (الطابور) على طول الطريق ، وعلى جانبيه في خط متصل - منحدرتا تارة ومصعدا طورا - مشى شباب الجنود في أحديتهم العالية وستراتهم المصنوعة من فراء الغنم وطواقيمهم العالية ، والبندقيات على عواتقهم والفشك في أحزمتهم .

وكان السكون يلاحظ قدر المستطاع كالمعتاد كلما عبروا منطقة معادية .

الا انه قد يتفق احيانا ان تجلجل المدافع مرتجة عبر حفرة ، او ان يزنخر حصان مدفعية ، او يصهل غير فاهم ان الجميع مأمورون بالسكون ، او ان يصرخ قائد غاضب - في صوت اجش خفيض - في مرعوسيه بان الخط ينتشر الى الخارج اكثر مما ينبغي له ، او يسير مبالغا في القرب من (الطابور) او في البعد عنه ، ولم يقطع هذا السكون الا مرة عندما قفز الى الخارج - من رقعة من العليق (١)

بين الخط والطابور - غزال ذو صدر ابيض وظهر رمادي وفي اثره وعل باللون نفسه ذو قرنين صغيرين منحنيين الى وراه . وقد اقترب المخلوقان الهيوبان الجميلان من (الطابور) - تزودج سوقهما (٢) الامامية الى عل لدى كل وثبة يشانها - حتى ان بعض الجنود اندفعوا خلفهما يضحكون ويصرخون معتمزين طعنهما بالرماح الا ان الغزالين انشيا الى خلف وملصا من خلال خط شباب الجند ، وتعقبهما خيالة قلدن وكلاب السرية قفرا الى الجبال كالظير .

(١) العليق بسة لشدة مفتوحة : نيب شاك يتعلق بالشجرة . وثمرة كالتوت

(٢) جمع ساق ..

في اقامة سلسلة من الحصون الصغيرة . وبعد ان تبادل السفير نظرة سريعة مع الياوران - الذي حدثه هو هذا الصباح فقط عن ناحية الضعف المتعسة في نيقولا لاعتباره نفسه عظيما في وضع الخطط الحربية - بعد هذا اثني ثناء حارا على هذه انخطة التي ابرزت مرة اخرى قدرة نيقولا العظيمة في وضع الخطط الحربية .

وبعد العشاء ركب نيقولا عربته الى الفنزج (١) حيث تدور مئات من النساء في ملابس محكمة الضيق او بالغة الشح . وقد استرعت احداهن نظره بصفة خاصة فأرسل الى الالماني رئيس جوقة الفنزج واصدر امرا بان يقدم لها خاتم من الماس (٢) .

وعندما جاء تشرنيشوف بتقريره في اليوم التالي ايد نيقولا من جديد اوامر الى فورونتسوف : بان اهل ششنيا - وقد استسلم الحاج مراد الآن - يجب الامعان في ازعاجهم اكثر من ذي قبل كما يجب احكام الحصار المضروب حولهم .

فكتب تشرنيشوف بهذا الى فورونتسوف ، وعدا الى تفليس بريد آخر سيق فيه بقسوة المزيد من الخيل ، ووسم فيه المزيد من وجوه الحوذيين .

(١) الفنزج : الرقص المعروف بـ « الباليه »

(٢) الصبح الالماني وليس « الماس »

وكان الجو شتاء . ولكن عند اقتراب الظهيرة وبعد ما قطع الطابور - الذى بدأ فى الصباح المبكر - ثلاثة أميال ، بزغت الشمس وبلغت من العلو والقوة درجة جعلت الرجال شديدي الحرارة ، وأشرقت أشعتها الى حد اضحى من المؤلم معه النظر الى صلب الرماح الالامع أو الى الانعكاسات التى تضىء نحاس المدافع الأصفر كالشموس الصغيرة .

وكان من خلفهم الجدول الرائق السريع الذى عبرته الفصيلة توا ، ومن امامهم حقول محروثة ومراع فى أودية قليلة الغور . وعلى مبعدة منها من امام ، الأكام المعتمة الفامضة تكسوها الغابات وترتفع من ورائها صخور شامخة . وعلى مبعدة من تلك أيضاً فى الأفق السامق الهامات الثلجية الدائمة التغير التى تداعب الضياء كالأماس .

وعلى رأس السرية الخامسة سار على طول الطريق بتلر - وهو ضابط فارع وسيم كان قد بادل زميلا فى الحرس - وقد لبس سترة سوداء وطاقيّة عالية وحمل سيفه على عاتقه . وكان يعلاه معنى الشعور بهجة العيش ، وخطر الموت ، والشوق الى الحرب ، والإحساس بأنه جزء من كل هائل تديره ارادة واحدة . وكانت هذه هى المرة الثانية التى خرج فيها الى الحرب ، وقد جال بخاطره أنهم فى لحظة قد يطلقون عليه النار ، وإنه لن يتمتع عن الانحاء ، وحسب عندما تتطاير القنابر (1) من فوق رأسه او لن يحفل بصيرير الرصاص وحسب ، بل سيحمل رأسه أكثر انتصابا من ذى قبل وسيتلقت حوله الى رفاقه والى المسكر بعينين باسنتين ويأخذ فى التحدث فى صوت بانغ الهدوء فى شئون مقاييرة كل المفاسيرة لا هم فيه .

وانتثت الفصيلة عن الطريق الطيبة الى أخرى قل استخدامها كانت تعبر حقل أذرة بقيت فيه جذومها (2) بعد الحصاد وأخذت تتسأل الى قرب الغابة ، وإذا بقنبرة - ذات صفر مندر - تتطاير فوق الرؤوس بين عربات النقل ، ولم يستطيعوا أن يتبينوا مصدرها ، قنبرة دمرت الأرض فى الحقل الى جانب الطريق .

(1) القنابر : تصحيح لكلمة القنابل .

(2) الجذوم : الأقطاب .

فقال بتلر فى ابتسامة مشرقة الى رفيق كان يسير فى جواره :
- « انها تبدأ » .

وهكذا كان ، فقد ظهر بعد القنبرة حشد كثيف من فرسان الششنيين ببيارقهم من تحت حجاب الغابة وكان ميسورا أن يرى فى وسط الحشد بريق عريض اخضر . فقال صول مسن بعيد مدى النظر لبتلر القصير النظر : ان شاملا نفسه لابد ان يكون هناك .

وانحدر الفرسان من الاكمة وظهروا الى يمين فى الجزء الأعلى من الوادى والأقرب الى الفصيلة واخذوا بهبطون . وجاء الى سرية بتلر متطيا رهوانه قائد قصر القامة فى سترة سوداء سميكة وطاقية عالية ، وامره بأن يتجه الى يسار لينازل الفرسان الهابطين . وفى سرعة قاد بتلر سرته الى الاتجاه المحدد له ، غير ان قبل ان يبلغ الوادى سمع من خلفه طلقتى مدفع . فتلقت حوله : لقد ارتفعت من فوق مدفعين سحابتا دخان اغبر واخذتا تنتشران على الوادى .

وانسحب فرسان الجبليين الذين لم يتوقعوا بالطبع أن يلقوا المدفعية واخذت سرية بتلر تطلق النار عليهم ، واقعم الوهدة دخان البارود . وانما فى منطقة اكثر علوا فوق الوهدة فقط أمكنت رؤية الجبليين ينسحبون مسرعين وان ظلوا يطلقون النار خلفهم على القوزاق الذين كانوا فى اثرهم .

وتأثرت السرية الجبليين الى مدى أبعد ، وعلى سفح وهدة ثانية ظهرت محللة للعيان .

وتعقب بتلر القوزاق مع سرته ودخلوا المحلة جريا فألقوها مهجورة . وأمر المسكر بأن يحرقوا القمع والدريس والدارة ، ولم تلبث المحلة كلها ان امتلأت دخانا لاذعا تدافع من خلاله الجنود هنا وهناك وجذبوا الى خارج الدارة كل ما وسعهم أن يجدوا ، وفوق كل شئ أمسكوا وصادوا الطيور التى لم يتيسر للجبليين أن يحملوها معهم .

وجلس الضباط على مدى قصر بعد الدخان وتقدوا وشربوا . وأحضر لهم الصول بعض أقراص من الشهد فوق لوحة من الخشب ، ولم يكن هناك ما يؤذن بوجود ششنيين ، فأعطى فى ساعة مبكرة من العصر الأمر بالانسحاب .

بدأت آكام الثلج التي تبعد نحواً من مائة ميل كأنها جد دائية ،
وفي الفترات التي تفصل بين الأغنيات كان وقع الخطى النظامية .

وجلجلة المدافع تسمع على أنها الصورة الخلفية التي تبدأ وتنتهي
عندها كل أغنية . أما الأغنية التي تنفي في سرية بتلر فقد وضعها
جندى شاب أكراما للفصيلة وذهب ليرقص . وكانت الجوقة ترد
(شباب الجنود - شباب الجنود ، جد مغابرين ، جد مغابرين) ! .

وركب بتلر الى جانب الضابط الذي يطوه في الرتبة مباشرة وهو
يتروف الذي يسكنه ، شاعرا بأنه لا يستطيع ان يوفى كل ما ينبغي
عليه من شكر لكونه بادل مع الحرس وجاء الى القوقاز .

وكان حافزه الرئيسي للمبادلة أنه خسر في لعب الورق كل ما كان
لديه وخشى أن هو بقي هناك أن يفقد قدرته على المقاومة وأن لم
يكن لديه ما يضره بعد . والان انتهى كل هذا وتبدلت حياته وأصبح
شخصاً ظريفاً شهماً ! ونسى أنه أفلس ونسى ديونه التي لم تدفع . . .

القوقاز - الحرب - الجنود - الضباط ، أولئك الرفاق الشساوي
الثغام الطيبو الخلق - والبكاشي يتروف نفسه - كل أولئك بدأوا
مبتهجين اني درجة أنه لم يكذب بصدق أنه ليس في بطرسبرج : في
غرفة مفعمة بدخان التبغ ، ينثى الى أسفل أركان ورق اللعب (١) ،
ويقامر ويحقد على من معه (البنك) ويشعر بالكميد في رأسه الا
أنه هنا حقاً في تلك المنطقة المجيدة بين أولئك القوقازيين
الشجعان .

وقد عاشا معاً ، على غرار زوج وزوجه ، البكاشي وابنة مراسلة
أحد الجراحين - وكان يطلق عليها قبلاً اسم (ماشا) ولكن يطلق
عليها الآن اسم ادعى للاحترام وهو مارية ديمترييفنة ، وكانت امرأة
مليحة شقراء جد نمشة لا ولد لها وفي الثلاثين من عمرها . وهي
الآن - أيا كان ماضيها - رفيقة البكاشي المخلصة التي ترعاه كأنها
ممرضة ، وهذا أمر ضروري جداً إذ طالما أسكر نفسه الى حد
الغيبوبة .

وعندما بلغوا الحصن حدث كل شيء كما حسب البكاشي . قدمت
مارية ديمترييفنة اليه والى بتلر واثنين آخرين من ضباط الفصيلة ،

(١) طريقة لمخاطبة الرهان في لعبة اصابة الهدف شوتس .

وكونت السرايا (طاپورا) خلف المحلة ، واتفق ان كان بتلر في
ساقته . ولم يكادوا يبدعون حتى ظهر الششنيون بطاردون الفصيلة
ويطلقون عليها النار . ولكنهم أمسكوا عن هذه المطاردة بمجرد أن
خرجوا الى العراء .

ولم يجرح احد قط من سرية بتلر فعاد في حالة نفسية موفور
السعادة والقوة . وبعد ان خاضت الفصيلة الجدول ذاته الذي عبرته
في الصباح انتشرت في حقول الأذرة وبين المروج ، وتقدم منشدو
كل سرية (١) وملات الأغاني أطباق الجو .

وأشدد منشدو بتلر : « شباب الجنود ، شباب الجنود ، جد
مغابرين ، جد مغابرين » وخطا فرسه طرباً مع أيقاع الموسيقى .
وجرى الى أمام ترزويكا - وهو كلب السرية الرمادي الأشعث ذبله -
متحوا الى أعلى يحمل كالكفاد معنى المسئولية . واستشعر بتلر خفة
وهودوا ويهيجون . ولاحت له الحرب على أنها تعرض نفسه للمخاطر
ومواجهته لوت محتمل ليس غير، فينال بمقتضى هذا المثوبة والاحترام
من رفاقه هنا كما ينالهما من اصدقائه في روسيا . ومما يحقق قوله
مع الدهشة أن خياله لم يصور له قط مطالع (٢) الحرب الأخرى
كموت الجنود والضباط الجبليين وجراحهم . ولكني يستقي تصوره
الشعري كان يجتنب حتى دون أن يشعر النظر الى القتلى والجرحى
من بجثة ملقاة على ظهرها ولم يتوقف لينظر ، وإنما رأى بعين واحدة
فقط الوضع الغريب للبدن التي كالشمع والبقعة الحمراء القائمة على
الرأس . وبدأ له أن الجبليين ان هم الا بوسائل عليه ان يذودهم
عن نفسه .

وقال البكاشي الذي معه في الفترة التي بين الأغنيتين : « انت
تري ياسيدى العزيز ان حالك هنا ليست كحالك في بطرسبرج (العينان
صوب اليمين ! ، العينان صوب اليسار !) هنا قمنا بعملنا ، والان
نذهب الى المنزل ، وستضع ما شا اماننا فطيرة محشوة وشيئا من
حساء السكرمب اللذيذ . هذه هي الحياة . الا تظن ذلك ؟ والان ابدءوا
هيا . (فيما كان الفجر ينشق !) » ، وطلب أغنيته المفضلة .

ولم تكن هناك ريح . وكان الهواء عليلاً صحواً وكان شفافاً بحيث

(١) كان لكل فرقة عسكرية جوقة من المشدين .

(٢) مطالع الحرب : وجوهها .

كانا قد دعينا ، عشاء مغذيا للذئبا ، واكل البكباشى وشرب حتى عجز
عن الكلام ثم ذهب الى غرفته لينام .

ولما كان يتلر قد شرب من خمرة الشعير اكثر من طاقته . فقد
ذهب الى غرفة نومه متعبا وان كان راضيا . ولم يكذب يخلع
ملابسه حتى راح في نوم عميق متصل غير حالم ويده تحت راسه
الجعد الوسيم .

- ١٧ -

وكانت المحلة التى دمرت هى بعينها المحلة التى امضى فيها الحاج
مراد الليلة التى ذهب بعدها الى الروس . وقد ترك سعد واسرته
المحلة عندما اقتربت الفصيلة الروسية . ولدى عودته وجد دارته
بيابا ، السقف متقوض فى داخلها ، والباب والممسد التى ترفع
السقيفة محترقة ، وداخل الدارة بالغ القذارة . اما ابنه - الصبى
الوسيم ذو العينين البراقتين الذى كان قد رنا الى الحاج مراد بسرور
فناط - فقد حمل الى المسجد فوق حصان ميتا مسجى (١) ببردة
... لقد طمن بسنجة فى ظهره - وقفت المرأة الوقور التى خدمت
الحاج مرادا عندما كان بالبيت ، وقفت الآن على جثمان ولدها وقد قد
قميصها من قبل (٢) واكتشف ثدياها العتيقان الداويان ، وتمهدل
شعرها ، وانشبت اظافرها فى داخل وجهها حتى ادمى . واعولت
اعوالا متصلا . وحمل سعد ممولا وجاروفا وذهب مع اقربائه ليحتفر
لولده قبرا . وجلس الجد المعجوز فى جوار جدار الدارة المخربة
يبرى عصا وينظر امامه كالابله . انه عائد لتوه من النحل .

لقد احرقت كومتا الدريس الموجودتان هناك ، وكسرت
وسقت (٣) اشجار المشمش والكريز التى غرسها وتمهدها ، واسوا
من هذا كله : احرقت كل خلايا النحل والنحل . واختلط عويل
النساء وصغار الاطفال الذين خرجوا مع امهاتهم بخوار الهائم الحائمة
التي لم يوجد لها ثمة طعام اما كبار الاطفال فبدلا عن ان يلعبوا ،
لاحقوا ذوبهم - الذين يكبرونهم - بعيون فزعة . ودنس الينبوع ،
عمدا من دون شك ، للحيلولة دون استعمال الماء . ودنس المسجد
بالصورة نفسها ، وكان الملا ومساعدوه فى سبيل تطهيره . ولم يتكلم
احد عن كراهية الروس ، اذ كان الاحساس الذى يكابده الششنيون
من صغيرهم الى كبيرهم اقوى من الكراهية ، ليست كراهية اذ انهم
لم ينظروا الى تلك الكلاب الروسية على انها من بنى آدم . ولكنه كان

(١) سيج الميت : مد عليه عطاء .

(٢) قبل يمستين من امام .

(٣) سلعت السموم وجهه : لقتحه وبغرت لون بشرته .

نفورا واشتمزازا وحيرة من القساوة العديمة الحس لتلك المخلوقات الى حد ان الرغبة في افنائهم - كالرغبة في افناء الفيران او العناكب السامة او الذئاب - اوضحت غريزة طبيعية كغريزة حفظ النوع .
 واصبح لزاما على سكان المحلة ان يختاروا . فاما ان يظلوا هناك وينجدوا بجهود مروعة كل ما كانوا أنتجوه بمثل هذا الكد وما دمر بمثل ذلك الاستهتار وذلك الجنون متعرضين في كل لحظة لاحتمال تكرار ما حدث ، واما ان يستسلموا للروس ضد دينهم وبرغم النفور والاحتقار اللذين يكتانه لهم .
 وابتهل العجائز من الرجال وقرروا ان يرسلوا مبعوثين الى شامل يسألونه العون . ثم ما لبثوا ان بدأوا في العمل لتجسيديد ما اصابه التلف .

- ١٨ -

وفي الصباح بعد الفارة في وقت ليس بالمبكر جدا زابل بتلر الدار من السقيفة الخلفية قاصدا ان يجول جولة وأن يستنشق الهواء العليل قبل الفطور الذي يتناوله في العادة مع بتروف . وكانت الشمس قد ارتفعت فوق الاكام ، وكان من المؤلم النظر الى الجدر البيضاء المشرقة الاضاءة للدار التي الى الجانب الايمن من الشارع . ولكن كان مما يبهج النفس وينزل السكينة اذ ذلك وفي كل وقت ان ينظر المرء بسرة الى الاكام الداكنة المرتدة المتعالية التي تكسوها الغسابات والى صف الهامات الثلجية الاغبش الذي يبدو كأنه السحب ، ونظر بتلر الى تلك الجبال وهو يستنشق انفاسا عميقة وبتهلل : لانه باق على قيد الحياة ولأنه هو دون غيره الباقي على قيد الحياة ، ولانه يعيش في هذا المكان الجميل .

وقد سره بوجه عام انه تصرف على هذا النحو من التصرف الحسن في مسألة الامس في اثناء التقدم ، وبخاصة في اثناء التفهق عندما كانت الامور على اشدها . وكذلك سره كيف عاملتهم ماشا (او مارية ديمتريفنة) عشيقة بتروف - لدى العشاء عندما عادوا بعد الفارة وكيف كانت هاشة متبسطة مع الجميع ، وكيف كانت رفيقة به بوجه خاص فيما زعم .

اما مارية ديمتريفنة - بتديرة شعرها الفزيرة ومنكبها العريض وصدرها العالي والبسمة المشعة على وجهها التمش الرقيق - فقد استرعت عن غير عمد بتلر الذي كان عزبا فتيا قوى البنية . وقد بلغ به الامر ان تخيل انها تصوا اليه ، غير اني اعتبر ان في هذا اساءة الى رفيقه التقى السريرة ، الطيب القلب ، فعاملها معاملة بسيطة محترمة . ورضى عن نفسه اذ فعل ذلك .

كان يفكر في هذا عندما قطع هواجسه وقع حوافر خيل كثيرة على طول الطريق المتربة امامه كما لو كان رجال عديدون راكبين في تلك الطريق . فنظر مستطلما وراى في نهاية الشارع جمعا من الخيالة

متجهين صوبه في نزهة . وفي مقسمة عشرين من التوزاق ركب
رجلان : أحدهما بليس سترة شركسية بيضاء وعلى رأسه عمامة
طويلة . والثاني ضابط في خدمة الروس ، أسمر ذو أنف أفتى بذلته
الرسمية وأسلحته موشاة بكثير من الفضة . أما الرجل ذو العمامة فقد
ركب فرسان مطهما كستانيا له معرفة وذيل اخف لونا ورأس صغير
وعينان جميلتان . وأما فرس الضابط فقد كان حصانا جسيما مليحا
من كاراباخ . وقد ميز بتلر في الحال - وهو من هواة الخيول - عظيم
قوة الفرس الأول ، وتوقف ليعرف من يكون أولئك الرجال .

فخطبه الضابط مستفهما وقد تم على أصله الأجنبي لهجته الأجنبية
والفاظه : « هذا بيت الضابط المكلف بالقيادة » .

فأجاب بتلر بأنه هو . وأضاف وهو يزداد اقترابا من الضابط ويشير
الى الرجل ذي العمامة : « ومن هذا ؟ » .

فقال الضابط : « هذا هو الحاج مراد ، لقد جاء الى هنا ليقيم
مع القائد » .

نعم ، عرف بتلر عن الحاج مراد وعن استسلامه الى الروس ولكنه
لم يتوقع قط أن يراه هنا في ذلك الحصن الصغير . وقد نظر اليه
الحاج مراد نظرة الصديق .

قال بتلر : « طاب يومك يا (ككلدى) » مرددا التحية التترية التي
تعلمها .

فأجاب الحاج مراد وهو يوميء برأسه : « ساوويل » (ى سلمت) .
وركب الى بتلر وأمسك يده من الاصبين اللتين تملق بهما سوطه .

وسال : « انت الرئيس ؟ » .

قال بتلر مخاطبا الضابط : « كلا ، الرئيس هنا في الداخل ، سأذهب
واناديه » وصعد الدرج ودفع الباب ، إلا أن باب مدخل الزوار - كما
اسمته مارية ديمتريفنة - كان مغلقا . وبما أنه ظل مغلقا بعد ما قرعه
بتلر ، استدار الى اليساب الخلفى ، ونادى « مراسلته » فلم يلق
جوابا . ولما لم يجد أيا من (المراسلتين) دخل المطبخ حيث كانت
مارية ديمتريفنة - وقد تورد خدها وربطت متديلا على رأسها وطوت
كفيها على ذراعيها البيضاءين الكتنزيرين - تلف عجائن بيضاء كيديها ،
وتقطعها قطعا صغيرة لتصنع منها فطيرا محشوا .

وسأل بتلر : « الى اين ذهب (المراسلتان) ؟ » .

فأجابت مارية ديمتريفنة : « ذهبا ليشربا قدحا من الخمر ، ماذا
تريد ؟ » .

« يفتح الباب الامامى - لديك - حشود كامل من الجلبين امام
بيتك . لقد أتى الحاج مراد ! » .

قالت مارية ديمتريفنة مبتسمة : « اخترع شيئا آخر ! » .

- « لست امزح ، انه ينتظر الى جوار السقيفة حقا ! » .

قالت : « احقا ذلك ؟ » .

- « لماذا أرغب في ان أخدعك ؟ اذهبي وانظري ... انه الى جوار
الباب تماما ! » .

قالت مارية ديمتريفنة وهي تسدل كفيها وتحسن يديها لتجس
هل كل دبائيس الشعر التي في غدبرتها الغزيرة في أحسن وضع :
« يا سلام أى حدث هام ! سأذهب اذن وأوقظ ايفان ماتفيتش » .

فقال ل « مراسلته » بتروف الذى ظهر توا : « كلا ، سأذهب بنفسى .
وانت يا بوندارينكو اذهب وافتح الباب » .

قالت مارية ديمتريفنة : « والله بركة ! » وانصرفت الى عملها .

فلما سمع ايفان ماتفيتش بتروف - وهو الكباشى الذى علم قبل
ذلك بان الحاج مرادا في جروزنى - أنه جاء الى بيته ، لم يتدهش
قط . وحسب في فراشه ولف لفيقة تبغ وأشعلها وبدأ يرتدى ملابسه
وهو نفثض حلقة في صوت عال وينقم من اصحاب الشأن ارسالهم اليه
« هذا الشيطان » .

وعندما تاهب امر (مراسلته) ان يحضر اليه بعض الدواء .. ولما
كان (المراسلة) يعمرف ان « الدواء » يعنى « الفودكا » احضر له
شيئا منها .

وبعد ان شرب الكباشى الفودكا وقضم قضة من خبز الشيلم تمتم
قائلا : « ليس شئ أسوأ من المزج » وأضاف : « لقد شربت امس قليلا
من خمر الشعير وأنا الآن مصدع الرأس .. فليكن .. أنا متأهب » .
وذهب الى الردهة التي كان بتلر قد سبق فقصاد اليها الحاج مرادا
والضابط الذى يرافقه .

وسلم الضابط البكباشى امرا من قائد الجناح الايسر فحواه ان عليه ان يستقبل الحاج مرادا وان ياذن له فى الاتصال بالجبليين عن طريق الجواسيس على الا يسمع له بحال ان يزائل الحصن دون حراس من القوزاق .

وما كاد البكباشى يتلو الامر حتى نظر فى انتباه الى الحاج مراد وانعم النظر من جديد فى القرباس . وبعد ان تنقل بعينه مرارا بينهما على هذا النحو ركز نظره آخر الامر فى الحاج مراد وقال :

« يكفى بك يكفى ! (حسنا جدا يا سيدى ، حسنا جدا !) دعه يقيم هنا ، واخبره بان لدى امرا بالآ اتركه يخرج ... وما صدر به الامر فهو مقدس ! وابن يفضل ان تؤويه فيما تظن يا بتلر ؟ هل تضعه بالكتب ؟ » .

ولم يتسع الوقت امام بتلر لان يجيب قبل ان توجه الكلام للبكباشى مارية ديمترييفنة التى جاءت من المطبخ وظلت واقفة فى معبر الباب .

قالت - وهى ترمو الى الحاج مراد ، فلما التقت عينها بعينه تحولت عنه مسرعة : - « ولماذا ؟ ابقوه هنا ! سنعطيه غرفة الاضياف وغرفة الخزين اذ ذلك سيظل تحت نظرنا فى كل حال » .

قال بتلر : « نعم اظن ان مارية ديمترييفنة على حق » .

فقال البكباشى عابسا : « وبعد وبعد ، اذهب بعيدا ، ليس للنساء من شأن هنا » .

وفى اثناء كل هذا الحوار جلس الحاج مراد ، وبده على مقبض سيفه ، وعلى شفثيه بسمة ازدياء حائلة : ، وقال ان كل المساكن عنده سواء ، وانه لا يبقى اكثر مما امر به السردار وهو اتصاله بالجبليين ، وانه على هذا يرغب فى ان يؤذن لهم بالمجئ اليه .

قال البكباشى : « ان هذا سينفذ ، وسأل بتلر ان يرحب بالضيفين حتى يتسنى ان يحضر لهما شئ يأكلونه وان تعد غرفهم . وفى خلا هذا الوقت سيمبر هو الى الادارة ليكتب مايلزم وليعطى بعض الاوامر

وقد تحددت فى الحال وفى ضوء تام العلاقة بين الحاج مراد وبين معارفه الجدد . لانه منذ البداية لقي صدا من البكباشى كما انه احتقر هذا البكباشى وكان دائما يسامله فى كبرياء وترفع . فاما مارية

ديمترييفنة التى كانت تعد طعامه وتقدمه اليه فقد كانت موضع سروره بصفة خاصة ، لانه احب فيها بساطتها وبوجه خاص هذا النوع من جمالها الغريب بالاضافة اليه ، كما انه تأثر بالجاذبية التى احسنت بها نحوه والتى احبته بها دون ان تشعر . وقد حاول الا ينظر اليها ويخاطبها ولكن عينيه كانتا تتجهان صوبها وتتأثران حركاتها . واما مع بتلر (منذ اول التعارف) فقد تصادق من فوره وتحدث اليه كثيرا وعن طيب خاطر ، وكان يساله عن حياته الخاصة ويخبره عن حياته هو ، ويبلغه الانباء التى تنقلها اليه الجواسيس عن احوال أسرته . بل ذهب الى حد استشارته فى الطريقة التى ينبغى له ان يتصرف بهقتضاها .

ولم تكن الاخبار التى نقلها اليه الجواسيس طيبة . فقد اتوا اليه مرتين - فى خلال الاربعة الايام الاولى لتزوله فى الحصن - وفيهما نقلوا اليه انباء سيئة .

زر اسود وقد لف حولها شال عمامة ابيض يتدلى احد طرفيه الى ما تحت عنقه . ولبس خفين اخضرين و (طولوق) اسود يزينة شريط بسيط .

ولم يلبس اى شيء براق ، فلا ذهب ولا فضة ، واما جسده الطويل المنتصب القوى الذى يكتسى اثوابا عاطلة عن الزينة تساما والذى يحف به المريدون ، يعلو حللمه ، واثوابهم الذهب والفضة ، فقد احدث فى الناس على وجه الدقة - الانغمال والاثر اللذين اراد ورغب فى ان يحدثهما . وكان وجهه الشاحب - الذى حفت به لحية ضاربة الى الحمرة بالغة التشذيب ، بعينيه الصغرتين المصويتين دائما الى اعلى - جامدا كانه قد من صخر . وقد استشعر - فيما كان راكبا عبر المحلة - شخوص الف عين مسددة اليه ، دون ان ينظر هو الى احد .

وخرج زوجنا الحاج مراد الى السقيفة مع سائر نزلاء الدارة - ليشهدوا دخول الامام . اما فاطمة ام الحاج مراد الشيخة ففى وحدها التى لم تخرج ، بل ظلت جالسة على ارض الدارة ، يتدلى شعرها الاشيب ، وتطوق ذراعها الطويلان ركبتيها الهزلتين ، وتطرف بعينها السوداوين المتقدتين فيما كانت ترقب الجسدوات الهامدة فى الموقد . لقد كرهت دائما شاملا كما كرهه ولدها، وكرهته الان اكثر من اى وقت مضى ، ولم تكن لها رغبة فى رؤيته . وكذلك لم يشهد ولد الحاج مراد دخول شامل المظفر . ولكنه سمع - وهو جالس فى الحفرة الظلمة المخمة - طلقات النار والانشاد ، وكابد عدايا لا يعرفه الا شباب ملثوا وطنية وحرموها الحرية . واما شهد فقط رفقاءه المساجين السيئى الحظ القسدين النهويين ، شهدهم تبرحهم المرارة ويملا قلوبهم حقد بعضهم على البعض الآخر فى اغلب الامر ، حتى غدا الان يحسد حسدا شديدا اولئك الذين يتمتعون بالهواء النقي والضوء والحرية ، ويدورون على جيساد متقدة حول زعيمهم ، ويطلقون النار ، وينشدون من اعماق قلوبهم : (لا اله الا الله) .

وعندما عبر شامل المحلة ركب الى داخل الساحة الكبرى المتصلة بالساحة الداخلية حيث يقع بيت الحرير . فلقه لسفيان مسلحان لدى الابواب الكبيرة المفتوحة لهذه الساحة الخارجية التى كانت تمج بالناس وقد جاء بعضهم من جهات نائية لثبوتهم الخاصة ، واتى بعضهم بظلامات ، واستدعى شامل البعض ليحاكمهم ويحكم عليهم .

نقلت اسرة الحاج مراد الى فيدينو فور ارتداده الى الروس ، وهناك وضعت تحت الحراسة فى انتظار قرار شامل . فقد وضع النساء (امه المجوز فاطمة وزوجته مع اطفالهما الخمسة الصغار) تحت الحراسة فى دارة الضابط ابراهيم راشد . اما يوسف بن الحاج مراد - وهو فتى فى الثامنة عشرة - فقد اتى فى السجن (اى فى حفرة يزيد عمقا على السبع اقدام) مع سبعة من المجرمين كانوا مثله ينتظرون قرارا عن مصيرهم .

وقد تأخر صدور القرار لان شاملا كان متغيبا فى حملة ضد الروس .

وفى السادس من يناير من سنة ١٨٥٢ عاد الى فيدينو بعد موقعة : يقول الروس انه قهر فيها وفر الى فيدينو ، ويقول هو والمريدون جميعا انه انتصر وصد الروس . وفى هذه الموقعة اطلق فدارته بنفسه (وقلما كان يفعل ذلك) واستل سيفه وكاد يهوى راسا على الروس لولا ان رده المريدون الذين صجبه ، وقتل منهم فى الحال اثتان الى جانيه .

وكان انوقت ظهرا عندما ركب شامل الى مقامه يحف به جماعة من المريدون يدورون حوله بافراسهم ، ويطلقون بندقياتهم وغدرانهم وينشدون بلا انقطاع (لا اله الا الله) .

وخرج جميع سكان المحلة الى الشوارع او فوق أسطحهم للقاء حاكمهم ، واطلقوا كذلك بندقياتهم وغدرانهم ابدانا بالظفر . وكان شامل يركب جوادا عربيا ابيض اخذ يشد شكميته عندما اقترب من البيت . ولم يتحل الجواد بابة حلية من ذهب او فضة بل كان ما عليه من ابسط الانواع : لجام من جلد احمر دقيق الصنع ذو خط ملون تحت منتصفه وركاب معدنى على شكل الكاس ، وجوخة سرج حمراء تبرز قليلا من تحت السرج . وكان الامام يرتدى عطافا من قماش رمادى مبطن بفراء سود تبرز عند الرقبة والاكمام ، يشد شدا محكما حول خصره الطويل النحيل سير اسود يمسك خنجره . وكان يلبس على راسه « طاقية » طويلة عليها تاج مسطح ، ولهيا

كانتسخين وشرب الخمر) قص جمال الدين كيف أرسل الحاج مراد رجلا ليبحثوا بأسرته الى الروس ، الا ان هذه المحاولة كشفت ، وجيء بالأسر الى فيدنيو حيث وضعت تحت الحراسة في انتظار قرار الامام . وفي الغرفة التالية غرفة الاضياف كان الشيوخ مجتمعين يتداولون في كل هذه الشؤون ، فنصح جمال الدين شاملا بأن يفرغ منهم ويدعهم يذهبون في ذلك اليوم نفسه بما انهم منتظرون منذ ثلاثة ايام .

وبعد ان تناول شامل طعامه الذي قدمته له في غرفته زبدا - وهي امرأة سمراء حادة الانف كريهة المنظر لم يحبها ولكنها كانت اسن ازواجه - مضى الى غرفة الاضياف .

فنهض لتحتيته لدى دخوله الشيوخ الستة الذين كونوا مجلسه الاستشاري . وكانت لاحام ما بين بيضاء وشيياء وحمراء ، وكانت عنى رعوسهم طواق عالية بلغ عليها بعضهم عمامة دون البعض ، وقد ارتدوا مشالغ جديدة سترًا شركسية تحزمها سيور تعلقت بهسا خناجرهم . أما شامل فقد ارتفع بعامته حتى علتهم جميعا . وعندما دخل الغرفة رفع يديه - والآخرن معه - وقلب كفيه الى اعلى واغمض عينيه وتلا دعاء ومسح وجهه بكفيه نازلا حتى صمها في اقصى اللحية . وفي اثر ذلك جلسوا جميعا - وكانت الوسادة التي جلس عليها شامل اكبر من الأخرىات - وتداولوا في شتى المسائل التي امامهم .

ففي مسألة المجرمين صدرت الاحكام وفق الشريعة : حكم على اثنين بقطع يد جزاء السرقة ، وعلى رجل باطاحة عنقه جزاء القتل ، وعفى عن ثلاثة . ثم واجهوا المسألة الكبرى : كيف يصدون الشنشين عن الانضمام الى الروس . وفي سبيل مقاومة هذه النزعة كتب جمال الدين البلاغ الآتي :

« انى ابتغى لكم السلام الدائم مع الله القادر على كل شيء ! .
« انتهى الى ان الروس يتملقونكم ويفرونكم على الإذعان لهم .
فلا تصدقوا ما يقولون ولا تدفعوا بل انبتوا . ولئن لم تجزوا على ذلك في هذه الحياة الدنيا فستجزون في الحياة الآخرة . واذكروا ما حدث من قبل عندما أخذوا منكم سلاحكم ! ولو لم يحبوكم الله الحكمة اذ ذلك - في سنة ١٨٤٠ - لكنتم الان جنودا لهم ، ولاستباحوا نساءكم ، ولتعرض عليهم بعد ان يلبسن السراويل .

وفي اثناء ركوب الامام الى الداخل حياه الجميع في احترام يوضع ايديهم على صدورهم ، وركع بعضهم وظلوا على ركبهم طوال ركوبه عبر الساحة من الابواب الخارجية الى الداخية . ومع ان شاملا عرف من بين الناس الذين انتظروا في الساحة كثيرين من الذين يكرههم وعددا عديدا من مقدمى الظلمات التعيين الذين يريدون أن يوجه اليهم التفاتة فقد مر بهم جميعا وعلى وجهه التعبير نفسه الحجري الجامد . ولما دخل الساحة الداخية ترجل عند السقيفة امام جناحه الواقع الى يسار الباب . وكان ذهنه منهوكا اكثر من بدنه بسبب الجهد الذي اقتضته الحملة . اذ أنه برغم الاعلام العام بأنه كان يعلم تمام العلم بأن غزوته كانت مخففة وان كثيرا من (المحلات) الشنسية قد احترقت عن آخرها ودمرت وان الشنشين المترددن المتقلبين يتذبذبون ، وان اولئك الاذنين من خط الحدود على استعداد ان ينضموا الى الروس .

كل هذا ينفي تديره ، وكان يضايقه لانه في تلك اللحظة لم يكن راغبا في التفكير اطلاقا ، انما اراد شيئا واحدا : الراحة ومباهج حياة الأسرة وتدليل زوجه المفضلة امينة (صراحة العينين السوداوين ، الخفيفة الخطو ، ذات الثمانية عشر عاما) التي كانت في تلك اللحظة ذاتها قريبة جدا من متناول يده خلف الحاجز الذي يقسم الساحة الداخية ويفصل نزل الرجال عن نزل النساء (وقد شعر شامل بأنها هناك يقينا مع ازواجه الأخرىات تنظر من خصاص « شق » بالحاجز بينما كان يترجل) . ولكن لم يكن من المستحيل عليه ان يذهب اليها وحسب بل لم يستطع حتى ان يرقد على وسادته المحشوة بالريش ويستريح من متاعبه . فقد كان عليه اولا ان يصلى فريضة الظهر التي لم يعل تلك اللحظة ادنى ميل الى اذناها ، والتي لم يكن ليستطيع اغفالها بوصفه الزعيم الدينى للشعب ، والتي اضحت ضرورية لكياته كطعامه اليومي تماما . لذلك توشا وصلى ، ونادى اولئك الذين كانوا في انتظاره .

وكان اول الداخلين حموه وأستاذه جمال الدين ، وهو شيخ طويل اشيب حسن الشكل ذو لحية بيضاء كالثلج ووجه احمر ردى . فدعا دعاء ثم أخذ يستفهم من شامل عن وقائع الغزوة ويقص عليه ما حدث بالجبال في اثناء غيبته .

ومن بين حوادث كثيرة الانواع (كحالات القتل المتصلة بالخصومات الدموية ، وسرقة السائمة ، واتهام البعض بمخالفة الطريقة -

« واحكموا على المستقبل على ضوء الماضي . وأولى بكم أن تموتوا على عداوة الروس من أن تعيشوا مع الكفار . صابروا قليلا ، وحتى آتى بالسيف والقرآن وأقودكم ضد العدو . أما الآن ، فاني آمركم أمرا باتا : ليس فقط بالأ تخامركم اية نية للاذعان الى الروس بل بالأ تراودكم حتى الفكرة ! » .

ووافق شامل على هذا البلاغ ووقعه وأمر بإذاعته في كل مكان .

وبعد هذه المسألة تداولوا في حالة الحاج مراد ، وكانت بالفة الأهمية بالإضافة الى شامل . فهو يعلم - وأن لم يشأ أن يعترف - بأن لو كان معه الحاج مراد (بخفة حركته وجسارته وبسالته) لما حدث في ششنيا ما حدث الآن . وعلى هذا فمن الخير الصلح مع الحاج مراد والأفادة بخدماته من جديد . وبما أن هذا غير ممكن فمن يصح السماح له بمساعدة الروس ، وأذن فينبغي أن يفرى بالعودة ويقتل . وقد يتأني لهم هذا : أما بارسال رجل الى تفليس يقتله هناك وأما بافرائه بالعودة ثم القضاء عليه . والوسيلة الوحيدة للثانية هي استخدام أسرته وبخاصة ولده الذي يعرف شامل انه يولج بجهه . وعلى ذلك فيجب أن يعملوا عن طريق الأبن .

ولما انتهى أعضاء المجلس من الكلام في كل هذا اغتمض شامل عينيه وجلس صامتا .

وبعد خمس دقائق من السكوت الرهيب فتح شامل عينيه ، ثم ضيقهما أكثر من المعتاد وقال :

- « اتونى بابن الحاج مراد » .

فأجاب جمال الدين : « انه هنا » . وفي الواقع كان يوسف بن الحاج مراد (النجيل الشاحب المهلهل الكريه الرائحة - الذي لا يزال مع ذلك وسيم الوجه والقوام - ذو العينين السوداوين اللتين تنوقدان توقد عيني جدته فاطمة) واقفا بالفعل الى جوار الباب الكبير للساحة الخارجية ينتظر ان يطلب للدخول .

ولم يكن يوسف يقاسم اباه شعوره نحو شامل . فهو لم يعرف كل ماحدث في الماضي ، وأن كان عرفه فهو لم يعيش فيه ، ولذلك لم يدرك بعد لماذا يعاند أبوه شاملا ويناجزه الى هذا الحد . ولما كان لا يصبو الا الى شيء واحد - وهو أن يظل يحيا الحياة الهينة الطليقة التي

عاشها في خان زاخ بوصفه ابن النائب - بدا له ان مناصبه شامل العداء غير ضرورية البتة . ومن باب التحدي وروح المناقضة لا يبه اعجب بشامل بصفة خاصة وقاسم أهل الجبل شغفهم به الذي يقرب من العبادة . والآن دخل حجرة الأضياف في شعور غريب من الرهبة والتبجيل للامام . ولم يكذب تبليط الى جوار الباب حتى التقى بالنظرة الثابتة من عيني شامل نصف المطبقتين . وسكن لحظة ثم دنا من شامل وقبل يده العريضة ذات الاصابع الطويلة .

- « أنت ابن الحاج مراد ؟ » .

- « أجل ، أيها الامام » .

- « أنت تعلم بما صنع ؟ » .

- « اعلم به أيها الامام وارثي له » .

- « هل تستطيع ان تكتب ؟ » .

- « كنت اعد نفسي لأن أصبح ملا ... » .

- « اذن فاكذب الى ابيك بأنه اذا رجع الى قبل العيد الكبير غفرت له وعاد كل شيء الى ما كان عليه قبلا . واذا لم يعد واذا بقي مع الروس ... » وعسى شامل أشد عبوس « فساؤزع جدتك ووالدتك والبقية علي (الحلات) اما انت فساؤضرب عنقك ! » .

ولم تطرف عضلة واحدة من عضلات وجه يوسف ، وحتى رأسه ليبدى انه فهم الفاظ شامل .

- « اكتب هذا واعطه لرسولي » .

وامسك شامل عن الكلام ونظر الى يوسف نظرة طويلة صامتا .

- « اكتب أشفق عليك ولن امتلك ولكني سأقفا عينيك كما اصنع بكل الخونة ... اغرب ! » بدا يوسف هادئا في حضرة شامل ولكنه عندما اقتيد الى خارج غرفة الأضياف هجم على من كان معه وانتزع خنجر الرجل من غمده وحاول أن يطعن نفسه ، ولكنه أمسك به من ذراعيه وقيد واقتيد من جديد الى الحفرة .

وفي غسق ذلك المساء - بعد ان انتهى شامل من صلاة المغرب - ارتدى عطافا مبظنا بفراء بيضاء ومضى خارجا الى الجانب الآخر من الحاجز حيث تسكن أزواجه وقصد رأسا الى غرفة امينة فلم يجدها هناك فقد كانت مع الأزواج الأكبر سنا ولما حاول شامل أن يظل بعيدا عن الأنظار استخفى وراء الباب ووقف ينتظرها . الا ان امينة كانت غاضبة عليه لانه اعطى بعض الاقمشة الحربية لزبدة

بقى الحاج مراد أسبوعا فى منزل البكاشى بالقلمة . ومع ان مارية ديمترييفنة تماركت مع حنفي الأشمت (ولم يكن الحاج مراد قد احضر معه الا اثنين من مريدبه وهما حنفي والدار) وطردته من المطبخ - وكاد ان يقتلها من جراء ذلك - مع ذلك كان من الواضح انها شعرت نحو الحاج مراد باحترام وعطف خاصين ولم تعد الآن تقدم له عشاءه بل عهدت بهذا الواجب الى الدار ، غير انها انتهزت كل فرصة لتراه وتقوم على خدمته ولم تفنأ تعير المفاوضات الخاصة بأسرته اشد اهتمام وقد عرفت كم زوجا وكم ولدا واعمارهم . وكلما اتى جاسوس ليراه استعملت كاحسن ما تستطيع عن نتائج المفاوضات . وفى اثناء هذا الاسبوع توثقت اواصر الصداقة بين بتلر وبين الحاج مراد . فتارة يأتى الأخير الى غرفة بتلر ، وطورا يذهب بتلر الى غرفة الحاج مراد ، وحينما يتحدثان بمساعدة الترجمان ، ومرة يتفاهمان جهد استطاعتهما بالاشارات وبخاصة بالبسمات . وقد تجلى ان الحاج مرادا استظلف بتلر حسبا استطاع معرفته من علاقة الدار بالأخير . اذ كلما دخل بتلر غرفة الحاج مراد استقبله الدار بابتسامة ودودة مبينا عن استانه اللامعة . وخف لييسط له وسادة يجلس عليها ولرفع سيفه عنه ان كان يحمل سيفا . واعتاد بتلر على ان يعرف - بل صادق - (حنفي) الأشمت اخاه الحاج مراد فى العهد وأحسن معاملته وكان حنفي يعرف كثيرا من اغاني الجيل ويحسن انشادها وكثيرا ما كان الحاج مراد - لسكى يدخل السرور على بتلر - يطلب الى حنفي ان ينشد متخيرا له الاغاني التى يراها افضل وكان صوت حنفي ثلاثيا صداحا (تينور) وانشاده غاية فى الوضوح وحسن التعبير . وقد استرعت نظر بتلر اغنية راقت الحاج مرادا بصفة خاصة بسبب لحنها المحزن الخاشع ، فسأل المترجم ترجمتها . وكان موضوع الاغنية ذلك المراك الدموى الذى سبق حدوثه بين حنفي والحاج مراد . وقد تسلسلت كما يلى :

سيجف الثرى فوق قبرى ايتها الام ، يا اماء ! وسوف تسينئى .

لا لها . وقد رآته يخرج من غرفتها ويدخلها باحثا عنها ولكنها تعمدت أن تظل بعيدة . ووقفت فترة طويلة على باب غرفة زيدة تضحك ضحكا نامعا على صورة شامل البيضاء وقد ظل يدخل غرفتها ويخرج منها . ويعد أن انتظر شامل من غير طائل عاد الى جناحه وقد حان وقت صلاة العشاء (١) .

وستعاج فوق المتكاثن من الكلا ايها الاب ، يا ايت ! وسوف لا تأسين على ! وعندما تكف المومع عن غسل عينيك السوداوين ابنتها الأخت ، يا اختاه ! فسوف لا ييريك الضنى .
اما انت يا اخى الأكبر فسوف لا تتسائى أبدا مع الثار الذى خاننى !

وانت يا اخى الأصفر فسوف تأسف أبدا حتى ترقد الى جوارى .
ويا ابنتها الرصاصة التى تحمل الموت والتى طالما أذريت بها .
لقد وائيت حامية . وما كنت قط عبدة لى ! .
وانت ابنتها الأرض السوداء التى وطنتها ومخضها أجواء الحرب ،
انك ستغطفى قبرى ! .

ما ابردك ايها الموت ، ومع هذا فقد كنت ربك ومولاك ! .
ولئن كان جسدى سريع الفوص فى جوف الأرض ، فروحى أسرع
فى طيرانها الى أطباق السماء .
وكان الحاج مراد يصفى دائما الى هذه الأغنية مطبق العينين ،
فاذا ما انتهت على إيقاع ممتد متلاش تدريجا لاحظ دائما باللفة
الروسية :

« أغنية طيبة ! اغنية حكيمة ؟ » .

وبعد ان وصل الحاج مراد وتوثقت روابط الالفة به وبمريديه
وزاد استيلاء شعر الحياة الجبلية المثير على بتلر حصل لنفسه على
مشاح وسترة شركسية و (طولوق) وخال نفسه من أهل الجبال
يحيى الحياة التى يحيها أولئك الناس .

وفى يوم رحيل الحاج مراد دعى الكباشى لتوديعه ضباطا عديدين
وكانوا جالسين : بعضهم الى المائدة التى كانت مارية ديمتريفنة
تصب الشاى عليها ، وبعضهم الى مائدة أخرى استقرت عليها
فودكا وخمرة والشمر ومنمشات أخرى ، كذلك كانوا عندما جاء
الحاج مراد - وقد لبس استعدادا للرحلة - يمرج الى داخل الفرقة
بخطى هية سريعة .

فنهضوا جميعا وصافحوه ، وقدم له الكباشى مقعدا على الأريكة
غير ان الحاج مرادا شكره وجلس على كرسى بجوار النافذة .
ولكنه لم يرتبك قط من السكون الذى تبع دخوله . وانما تطلع
فى انتباه الى كل الوجوه وركز نظره عدم اكتراث على مائدة الشاى
التي عليها الساموفارا (١) والمنمشات . وسال الحاج مرادا بتروفسكى

(١) الساموفار براد شاى كبير من النحاس يظل الشاى ويصب لمدد والى من الناس
فى وقت واحد ، ويستعمل احيانا على انه حلية شرقية .

- وهو ضابط همام لقبه الآن اول مرة - وذلك عن طريق المترجم :
- هل راقته تفتيس ؟ .

فاجاب : « اليا » .

وترجم المترجم . « يقول (نعم) » .

- « ماذا أعجبه هناك ؟ » .

وقال الحاج مراد شيئا جوابا على ذلك .

- « أكثر ما راقه المسرح » .

- « حسنا راقه الفترج فى بيت القائد العام ؟ » .

وعيس الحاج مراد وقال وهو يرنو الى مارية ديمتريفنة : « لكل
أمة عاداتها الخاصة بها ! ونسألونا لا يلبس على هذه الصورة » .

- « حسنا - ألم يرقه ؟ » .

فقال الحاج مراد للمترجم : « عندنا مثل سائر (قدم الكلب
للحمار لحما ، وقدم الحمار للكلب علفا ، فجاع كلاهما) » وابتمسم .

« وتبدو عادات كل أمة طيبة فى نظر أهلها » .

ولم تمتد المحادثة الى أبعد من ذلك . وتناول بعض الضباط
شايًا وبعضهم منشآت أخرى ، وتقبل الحاج مراد قدح الشاى الذى
قدم له ووضعه أمامه .

- الا تتناول « قشدة وقرصة ؟ » هكذا سألت مارية ديمتريفنة
وهى تقدمهما اليه .

وحنى الحاج مراد رأسه .

وقال بتلر وهو يعس ركبته : « حسنا ، اظن ان علينا ان نودع !
متى تلتقى ثانية ؟ » .

فقال الحاج مراد بالروسية وهو يبتسم : « وداعا وداعا ! » وهز
رأسه فى الاتجاه الذى عليه أن يسير فيه وقال بالنترية : « اودعك
يا اخى .. يا اخى المحارب ، اودعك ، حان الوقت » .. اذهب » .

وظهر الدار فى ميعر الباب يحمل شيئا فضفاضا ابيض على كتفه
من جانب لآخر وسيفا فى يده . واوماً اليه الحاج مراد فعبير الفرقة
فى خطى واسعة واعطاه طيلسان ابيض وسلمه السيف . ونهض
الحاج مراد واخذ الطيلسان ورماه فوق ذراعه وقال شيئا للمترجم
وسلمه لمارية ديمتريفنة .

قال المترجم : « يقول انك استحسننت الطيلسان فتقبله » فقالت
مارية ديمتريفنة وقد احمر وجهها خجلا . « اوه : لماذا ؟ » .

قال الحاج مراد : « ذلك لا بد منه كآدم » .

فأقلت مارية ديمتريفنة وهي تأخذ الطليسان : « اذن فشكروا »
وأضافت : « وليعناك الله على خلاص ولدك ، قل له اننى ادعوه له
بالحجاج في فك اسرار والده » .

ورنا الحاج مراد ديمتريفنة واطرق برأسه موافقا ، ثم اخذ
السيف من الدار وسلمه للبكاشى ، فسلمه وقال للترجم : « قل
له يتقبل فرسى الخصى الأشقر ، وليس عندى شيء غيره أقدمه
له .. » .

ولوح الحاج مراد بيده امام وجهه ليبدى انه لا يتبغى شيئا وأنه
لن يقبله وأشار أولا الى الجبال ثم الى قلبه وخرج .
وتبعه كل أهل المنزل الى الباب بينما سحب الضباط - الذين
بقوا داخل القسوفة - السيف من غمده وتفحصوا نصله وقرروا
أنه جردة (1) أصيل .

وصحب بتلر الحاج مرادا الى السقيفة . ثم طرا حادث لم يكن
متوقفا أصلا كان يمكن أن ينتهى بالقضاء على الحاج مراد لولا سرعة
ملاحظته وعزمته وخفة حركته .

ذلك أن سكان طاش كيشو (المحلة الكموخية المتحابة مع الروس)
كانوا يبجلون الحاج مراد كل التبجيل وطالما أتوا الى الحصن لا شيء
الا لينظروا الى النائب الذائع الصيت . وكانوا قبل ذلك بثلاثة أيام
قد اتفقدوا اليه رسلا يسألونه ان يزور مسجدهم يوم الجمعة ولكن
أمراء كموخ الذين كانوا يعيشون في طاش كيشو كانوا يكرهون الحاج
مرادا إذ كان بينهم وبينه عداة دموى مستحكم فيمجرد سماعهم بتلك
الدعوة أعلنوا على الناس ان عليهم الا يأتوا له في دخول المسجد . فتهايج
الناس ونشب قتال بينهم وبين أنصار الأمراء . فظيب الروس خاطر
الجليين وأرسلوا كلمة الى الحاج مراد بالا يذهب الى المسجد .
ولم يذهب الحاج مراد ، وظن كل أمرىء ان الأمر قد تمت
تسويته .

ولكن في لحظة رحيله تماما ، عندما خرج الى السقيفة التى امامها
وقفت الخيل تنتظر ، ركب الى البيت أرسلان خان وهو أمير من
أمراء الكموخ وأحد معارف بتلر والبكاشى .
وما كاد يقع نظره على الحاج مراد حتى انتزع غدارة من حزامه
وصوبها ولكن قبل أن يتسنى له أن يطلق النار انقض الحاج مراد رغم

(1) نوع من النمل ذائع الصيت .

عرجه منحرفا من السقيفة كالسنور صوب أرسلان خان الذى
أخطاه .

وأمسك الحاج مراد بيد فرس أرسلان خان من شكيمته واستل
خنجره باليد الأخرى وصرخ فيه بكلم تترى .
وعدا بتلر والدار من فورهما صوب الأعداء وأمسكاهم من أذرعهم
وكذلك خرج البكاشى الذى سمع الطلقة .

وقال عندما سمع بما حدث : « ماذا تقصد يا أرسلان بآثاره مسألة
قدرة امام مسكنى ؟ ليس هذا صوابا يا صديقى ! (لا داعى لان تخضع
للعدى فى ميدان القتال) ! اما ان تبدأ مذبحه كهذى امام بيتى .. » .
ونزل أرسلان خان من فوق حصانه - وهو رجل ضئيل ذو شارب
أسود - شاجبا مرتعدا ونظر مفضبا الى الحاج مراد ودخل البيت
مع البكاشى . اما الحاج مراد فقد تنفس تنفسا بطيئا وأبتسم وعاد
الى الخيل ، وسأل بتلر المترجم : « لم أراد قتله ؟ » .

وترجم المترجم اجابة الحاج مراد : « يقول ان هذا من شرانهم ،
وعلى أرسلان ان يقتصد لدم قريب له ولذا حاول قتله » .
فسأل بتلر : « واذا فرض انه باغته فى الطريق ؟ » .
وأبتسم الحاج مراد .

- واذا قتلنى فهذا دليل على ان تلك هى ارادة الله » وقال بالروسية
مرة أخرى : « وداعا » . وأمسك الفرس من غاربه . ودار نظرة
على كل من اتى لتوديعه واستكان فى رفق على مارية ديمتريفنة وقال
لها : « وداعا باصيتى وشكرا » .
وأعدت مارية ديمتريفنة : « أعانك الله ، أعانك الله على اتقاد
أسرتك ! » .

ولم يفهم كلماتها ولكنها استشعر انعطافها اليه وما اليها برأسه .
وقال بتلر : « أوصيك بالا تنس أخيك فى العهد » .
فجواب الحاج مراد المترجم « قل له باننى صديقه الحميم وان انساه
ابدا » وعلى رغم رجله القصيرة اعتلى فى خفة وسرعة السرج العالى
وهو لا يكاد يعس الركاب وبحركة تلقائية تحسس خنجره وعدل
سيفه ثم ركب وانطلق بعيدا عن بيت البكاشى بذلك المظهر الأشم
الذى لا يوائى الا لتوقازى جبلى يستقر فوق فرسه كأنه والفرس
جسم واحد وركب حنفا والدار ، وبعد ان ودعا مضيفهما والضباط
انطلقا بروكضان فى اثر مرشدهما .

واخذ الذين بقوا متخلفين يجادلون فى الذين ارتحلوا كما يحدث

وَجرت الحياة في حصوننا الامامية بالخطوط الششية كالاعتاد ؛
 ووقع منذ الحوادث المذكورة انفا هجومان فجائيان استدعيت اليهما
 السرايا وعدا رجال الجيش المرابط هنا وهناك ؛ غير ان الجليليين
 انذين تسببوا في الهسرج فروا في الحاليتين . وفي ذات مرة
 بفوزد فزهنسك قتلوا واحدا من القوازيق ونجحوا في اختطاف ثمانية
 افراس قوقازية كانت تترتوي . ولم تحدث غارة اخرى بعد تلك التي
 احرقت فيها المحلة . ولكن حملة ضخمة كانت منتظرة تبعا لتعيين
 قائد جديد للجناح الاسير وهو الامير بادياتنسكي ، وهو صديق قديم
 لثاب القيصير كان يقود فرقة الكارباردا . وعند وصوله الى جروزني
 بصفته قائدا للجناح الشرقي جميعا حشد في الحال سرية لتستمر
 في تنفيذ اوامر القيصير حسبما ابلغها تشرنيشوف الى فورونتسوف
 وزايلت الحصن الفضيحة التي حشدت في فوزد فزهنسك واتخذت
 لها موقعا بالقرب من الكورين حيث كانت الجنود تصعك وتجنل
 الغابة . . وكان فورونتسوف الصغير يسكن فسطاطا فاخرا من
 القماش ، وكثيرا ما جاءت زوجة مارية فاسيلفنة الى المعسكر وباتت
 ليلتها . ولم تكن صلات بارباتنسكي بمارية فاسيلفنة خافية على
 على احد . وكان الضباط الذين لا ينتمون الى جماعة الارستقراطية
 والجنود يسبونها بالفاظ نابية لان حضورها الى المعسكر يترتب عليه
 صدور الامر بقضاء ليلتهم في كمين . وقد اعتاد الجليليون ان يحملوا
 مدافع الى ابعاد تدخل المعسكرات في مرماها ويطلقوا عليها القنابل
 وكانت القنابل تخطيء هدفها بوجه عام . ولذلك لم تتخذ اجراءات
 خاصة في الاوقات العادية لمنع امثال هذه الطلقات . اما الان فيوضع
 الرجال في الكمين لصد الجليليين عن ابداء مارية فاسيلفنة او ازعاجها
 بعدافهم . وكان حلمهم على البقاء في الكمين اثناء الليل لتجنب
 سيده الخوف بسىء اليهم وبضايقتهم ولذلك كان الجنود والضباط
 الذين لا يسمح لهم بالاندماج في الطبقة العالية يتمتعون ماريبا فاسيلفنة
 بافصح الاوصاف وحصل بتلر على اجازة للتغيب من الحصن وجاء
 الى المعسكر ليزور بعض عشرائه القدامى من شسباب المدرسة

عادة لدى كل سفر .
 - « فتى مقدم ! لقد انتقض على ارسلان خان كالذئب ، وتغير
 وجهه كل انتقير ! » .
 فلاحظ بتروفسكي : « ولكنه سيلجأ الى المخادعة ، انه وغد
 مخوف ، احسبه كذلك » .
 فتدخلت مارية ديمترييفنة فجأة وهي مغيظة . « يؤسفني انه
 لا يوجد مزيد من الاوغاد الروس الذين على هذه الشاكلة ! لقد
 عايشنا اسبوعا ولم تر منه الا كل خير » واضافت : « انه مجامل
 حكيم مستقيم » .
 - « كيف كشفت هذا ؟ » .
 - « المهم انني كشفته ! » .
 وقال البكباشي الذي دخل الغرفة لتوه : « انها كالمأخوذة ، هذه
 حقيقة ! » .
 - « وحسنا ، واذا كنت كالمأخوذة فماذا يضريك ؟ لم تنال منه مادام
 رجلا طيبا ؟ انه تترى نعم ، ولكنه مع ذلك رجل طيب ! » .
 فقال بتلر : « هذا جد صحيح يا مارية ديمترييفنة ، ولك كل الحق
 في أن تنحازي له ! » .

الحربة وزملائه من فرقة الكورين الذين عملوا مساعدين وضباط مراسله .

ولدى اول وصوله امضى وقتا طيبا ، فقصد انزل في خيمة بولتوريتسكى وهناك لقي معارف كثيرة رحبوا به ترحيبا قلبيا . وكذلك عرج على فورونتسوف الذى عرفه معرفة بسيطة اذ عمل اياه مرة في فرقة واحدة . وقد رحب به فورونتسوف ، وقدمه الى الامير بارباتسكى ، ودعاه الى عشاء الوداع الذى كان بعده الكراما للقائد كوزلوفسكى ، وكان هذا يقود الجناح حتى وصول بارباتسكى . وكان العشاء فاخرا . وقد نصبت خيام صفا واحدا ، وعلى طولها جميعا بسطت مائدة كما بسطت في وليمة عشاء مع ما يلزمها من ادوات ومع زجاجات الخمر . وكان كل شيء يذكر بالحياة في حرس بطرسبرج وقدم العشاء في الساعة الثانية وجلس في الوسط كوزلوفسكى من ناحية وبارباتسكى من الناحية الاخرى وعلى يمين كوزلوفسكى وساره فورونتسوف (والزوجة) والى جانبى المائدة جميعا ضباط من فرقتي الكباردا والكورين . وجلس بتلر الى جانب بولتوريتسكى ، وتسامرا في حبور وشربات مع الضباط الذين حولهم . وعندما قدم الشواء وطاف (المواصلات) وملأوا كئوس الشمبانيا قال بولتوريتسكى لبتلر في اهتمام حقيقى :

« سيجاب صديقنا كوزلوفسكى لنفسه الخرى ! » .
« لماذا ؟ » .

« لماذا ؟ سيلقى خطبة ، وما قدرته على احسان الكلام ؟ .. ليس هذا في سهولة الاستيلاء على خنادق تحت وابل التيران ! اصف وجود سيده الى جانبه ووجود هؤلاء الارستقراطيين ! » .

وقال الضباط بعضهم لبعض : « ان من المؤلم النظر اليه حقا » . والان جاءت اللحظة الراهية ونهض بارباتسكى ورفع كاسه ووجه خطابا قصيرا الى كوزلوفسكى . فلما فرغ نهض كوزلوفسكى - الذى كان دائما يبالغ في الاحتيال على استعمال كلمتى « كيف ان » اكثر مما يجب - وبدأ بقوله :

« امتثالاً لإرادة صاحب الجلالة الرقيقة الشأن اترككم ، افاركم ايها السادة . ولكن اعتبروا اننى باق بينكم دائما . وتعرفون ايها السادة صدق المثل السائر : كيف ان (الرجل بعفوره في الميدان لن يكون طلالا) .. وعلى ذلك كيف ان كل مكافاة لتلها . كيف ان الامم انترى فاضت على من واسع كرم ملكينا الامبراطور .. كيف ان كل

مكاتبى .. كيف ان سمعتى الطيبة .. كيف ان كل شيء على وجه التحقيق .. كيف ان .. » (وهنا تهجد صوته) « .. كيف اننى مدين بيا لكم ، ولكم وحكم ايها الاصدقاء ! » . وزاد تفضن الوجه الجمعد ونشج (1) وانهاالت الدموع من عينيه : « وكيف اننى اقدم لكم من قلبى عرفانى الخالص الصادر من صميم الفؤاد ! » .

ولم يستطع كوزلوفسكى ان يعضى فى الخطاب بل استدار حوله وبدأ يقبل الضباط . واخفت الاميرة وجهها فى مندلبها ، وطرف الامير بعينه وانحرف فوه ، وابتلت عين كثير من الضباط ، ولم يستطع بتلر - الذى لم يكذب يعرف كوزلوفسكى - ان يكبح دموعه ، وقد احب كل هذا كثيرا .

ثم تلت انخاب اخرى ، وكانت فى صحة بارباتسكى وفورونتسوف والضباط والجنود ، وترك الزوار المائدة مخمورين بالنبيذ وبالزهرو العسكري الذى كانوا دائما عرضة له . وكان الجو عجباً مشمساً هادئاً والهواء بليلاً منعشاً . وقعقت نيران الزينة ورئت اصداء الاناشيد فى كل جانب حتى ليظن ان كل واحد يحتفل بحادث سعيد . وجاء بتلر الى بولتوريتسكى فى اسعد الحالات النفسية واحفلها بالعواطف . وهناك تجمع ضباط عديدون واقامت منضدة للعب الورق . وبدأ ملازم « نيكبا » بمائة روبل : ونزل بتلر الخيمة مرتين او ثلاثة ويده تقبض على كيس النقود فى جيب سراويله ولكنه لم يستطع آخر الامر ان يقاوم الاغراء اكثر مما قاوم ، وبرغم الوعد الذى كان قطعه لاجهه وعلى نفسه بالا بلعب بدأ بفعل ذلك . وقبل ان تمضى ساعة اشتدت حمرة وجهه وتصب عرقه وعلق الطباشير بملاسه وكان جالسا ومرققاه على المنضدة يكتب عليها تحت اوراق اللعب المتكفئة للأركان والناولون (2) - ارقام مرهاناته . وقد خسر حتى الآن كثيرا حتى انه خشى ان يحصى ما كان عليه ان يذفنه من المرهانات . ولكنه عرف من دون ان يحصى ان كل ما يستطيع ان يدفعه سلفا بالاضافة الى ثمن حصانه لن يفي بدفعه ما خطه ضده الملازم وهو غريب عنه . وكان يود مع ذلك ان يستمر فى اللعب الا ان الملازم الذى في عيوس الاوراق التى كان يسكها فى يده المرىضتين النظيفتين واضاف الارقام المكتوبة بالطباشير لمرهانات بتلر الخاسرة . واضطرب بتلر وبدأ ينتحل اعذارا عن عدم استطاعته دفع كل ديونه

(1) نشج « من باب ضرب » بخص بالكاء من غير انتخاب .
(2) هذه اصطلاحات من لعبة « شتس » .

دفعة واحدة قائلا انه سيرسلها من البيت وعندما فاه ذلك ليجظ ان الجميع أشفقوا عليه وانهم قاطبة حتى بولتوربتسكى اجتبوا لقاء عينيه . وكانت تلك ليلته الأخيرة هناك وفكر في أنه ما كان عليه الا ان يمتنع عن اللعب الا وان يذهبوا الى آل فورونتسوف الذى دعوه ، واذا ذلك يمسى كل شيء على ما يرام . اما الآن فليس الأمر فقط على غير ما يرام بل انه فظيح .

واستأذن من زملائه ومعارفه ، وركب عائدا الى بيته ، وذهب الى فراشه ونام ثمانى عشرة ساعة كما ينام الناس عادة عقب خسارة كبيرة . ومن واقع سؤاله اباه ان تقرضه خمسين كوبكا ليدفعها حلوانا للقوزاقى الذى رافقه وحرسه من نظراته الحزينة واجاباته القصيرة حزرت مارية ديمتريفنة انه خسر فى لعب الورق ولامت الكباشى لامطائه اباه اجازة غياب .

فلما استيقظ فى ظهر اليوم التالى وتذكر الموقف الذى كان فيه تاق من جديد لأن يفرق فى النسيان الذى طلع منه توا ، الا ان ذلك كان مستحيلا وتحتم اتخاذ الوسائل لدفع الأربعمائة والسبعين روبلا التى عليه للغير . وكانت الوسيلة الأولى ان يكتب لأخيه ممترا فخطيبته ويتضرع اليه المرة الأخيرة أن يقرضه خمسمائة روبل بضمان المصنع الذى ما يزالان يملكانه معا ثم كتب الى قريبة شحيحة يسألها ان تقرضه خمسمائة روبل بأى معدل ربح تريد . وأخيرا ذهب الى الكباشى علما بان لديه - او بالأحرى لدى مارية ديمتريفنة - بعض المال وسأله ان يقرضه خمسمائة روبل .

فقال الكباشى : « أريدك على ان تأخذها حالا ولكن (ماشا) لن ترضى ! ان هؤلاء النسوة منقبضات اليد الى حد بعيد . يا للشيطان ! من ذا الذى يستطيع ان يفهمهم ؟ . ورغم هذا يجب أن تخرج من هذا المازق بطريقة ما ، خذ اليك أبها الشيطان ؟ . الا يملك شيئا هذا الحيوان - أمين المقصف ؟ » .

ولكن لم يكن هناك أمل من الاقتراض من أمين المقصف وعلى هذا فتجدد بثلر تصدر اما عن أخيه او عن قريبته البخيلة .

- ٢٢ -

ولما لم يتسن للحاج مراد ان يقضى لباتته فى ششنيا عاد الى تفليس واخذ فى كل يوم يذهب الى فورونتسوف ، وكلما استطاع ان يحظى بمقابلة نائب القيصر توسل اليه ان يجمع الأسرى الجلبين ويستبدل بهم أسرته . وقال : ما لم يتم ذلك فيداه مغلولتان ولن يستطيع ان يخدم الروس ويهلك شاملا كما هي رغبته . وكان فورونتسوف بعد فى غموض بأن يصنع ما يسعه ثم يؤجل قائلا انه سوف يستقر على رأى عندما يصل الى تفليس القائد أرجوتسكى ويتدبر معه الأمر .

ثم سأل الحاج مراد فورونتسوف ان يأذن له فى ان يذهب ليسكن فترة فى نوخا وهي بلدة صغيرة وراء القوقاز حيث يستطيع فيما يقهر ان يجرى مفاوضات فى موضوع أسرته بطريقة أحسن مع شامل ومع الناس المخلصين له شخصا . وزيادة على ذلك فنسوخا بلدة اسلامية وفيها مسجد يستطيع به فى يسر ان يقيم شعائر الصلاة التى تقضى بها الشريعة الاسلامية . وكتب فورونتسوف الى بطرسبورج فى هذا الشأن وأجاز للحاج مراد فى الوقت نفسه الذهاب الى نوخا .

قد برزت القصة من أولها - باضافة الى فورونتسوف والى السلطات فى بطرسبورج والى أغلب الروس الذين يعرفون تاريخ الحاج مراد - على انها تحول سعيد فى الحرب القوقازية أو فى القليل على انها حادث شائق أما بالاضافة الى الحاج مراد فقد كانت ازمة فظيعة فى حياته وعلى الأخص فى المدة الأخيرة ، فلقد فر من الجبل لينجو بنفسه من جهة ، ويدافع عداوته لشامل من جهة أخرى . وبالرغم من ان هذا القرار كان شاقا فقد وصل الى غرضه وفرح بنجاحه فترة ما ، ورسم فى الواقع خطة لمهاجمة شامل ، الا ان انقاذ أسرته - الذى خاله سهل المثال - أثبت انه أصعب مما توقع .

وقبض شامل على الأسرة واحتجزها على انها من الأسرى ، وهدد بان يسلم النساء الى (المحلات المختلفة وان يعمى الابن أو يقتله) . والآن ذهب الحاج مراد الى نوخا بقصد ان يحاول - بمساعدة انصاره فى داغستان انقاذ أسرته من شامل بالقوة أو بالحيلة وقد أخبره

الجاسوس الأخير الذي جاء الى نوخا ليراه ان الموالين له من الأفاريين
 يمدون عندهم لان يختطفوا أسرته ويسلموها بانفسهم الى الروس ،
 إلا ان عددهم لا يكفي ، ولذا لا يستطيعون ان يخاطروا بالمحاولة في
 فدينو حيث يحتجز الأسرة الآن ، ولن يتسنى لهم ذلك إلا اذا نقلت
 الأسرة من فدينو الى مكان آخر ، وقد وعدوا بأنهم في هذه الحالة
 يتقدونها في الطريق وأرسل الحاج مراد كلمة الى أصحابها نحوها
 أنه مستعد لأن يدفع ثلاثة آلاف روبل لتحرير أسرته . وخصص له
 في نوخا منزل مكون من خمس غرف بالقرب من المسجد وسراى الخان .
 وأقام في البيت ذاته الضباط المكلفون بحراسته و مترجمه وخدمه
 وقضى الحاج مراد حياته في ارتقاب الرسل من الجبال واستقبالهم
 وفي رياضات ركوب الخيل الى الضواحي التي كان يؤذن له بها .
 وفي الرابع والعشرين من ابريل عندما عاد من إحدى تلك الرياضات
 علم بوصول موظف من تفليس ، في أثناء تقيبه من قبل فورونتسوف
 ورغم شوقه لمعرفة الرسالة التي أحضرها له الموظف ذهب الى غرفة
 نومه وسلى الظهر قبل ان يذهب الى الغرفة التي كان ينتظر فيها
 الضابط المكلف بالحراسة والموظف . وكانت التفليس تستعمل للجلوس
 والاستقبال . وأعلم الموظف الذي جاء من تفليس - وهو المستشار
 كيريلوف - الحاج مرادا برغبة فورونتسوف في حضوره الى تفليس
 في اليوم الثاني عشر للقاء القائد أرجونتسكى .
 فقال الحاج مراد في غضب : « يكشى » . ولم يرفه الموظف . « هل
 أحضرت نقودا ؟ » .

فاجاب كيريلوف : « أحضرت » .
 فقال الحاج مراد وهو يرفع اولا كلتسا يديه ثم أربعة أصابع :
 « منذ أسبوعين الآن ... هات هنا ! » .
 قال الموظف مستخرجا كيس النقود من حقيبة السفر : « سنعطيكها
 في الحال » . واستطرد يقول بالروسية وهو يظن ان الحاج مرادا
 لن يفهم : « ماذا يريد ان يصنع بالنقود ؟ » . ولكن الحاج مرادا
 فهم وحدث فيه غاضبا . وأراد المستشار - في أثناء استخراجها
 النقود - ان يبدأ حديثا مع الحاج مراد كى يكون عنده شيء يخبر
 به الأمير فورونتسوف لدى عودته ، فسأل عن طريق المترجم ، إلا
 يشعر بملل هناك . ونظر الحاج مراد من ركن عينه في زرابية الى
 الرجل القصير البدين الأعزل الذي يلبس كالدنيين ولم يجب . وأعاد
 المترجم السؤال :

« قل له اننى لا أستطيع ان أتحدث اليه ! ودعه يعطينى النقود ! »
 ولم يكده الحاج مراد يقول هذا حتى جلس الى المائدة يتأهبا
 لعددها .

وكانت راتب الحاج مراد اليومي خمس قطع ذهبية . وعندما
 استخرج كيريلوف النقود ورتبها سبعة اكوام في كل كوم عشر قطع
 ذهبية ودفعها صوب الحاج مراد ، عند ذلك صب الأخير الذهب
 في داخل كوم سترته الشركسية ، ونهض ، وعلى غير انتظار صفح
 المستشار كيريلوف على هامته الصلعاء واستدار ليمضى .

وقفز المستشار الى اعلا وأمر المترجم بأن يخبر الحاج مرادا بأنه
 ما ينبغي له ان يجرؤ على ان يسلك معه مثل هذا السلوك وهو الذي
 يشغل رتبة توازى رتبة أميرالاي ! وأمن على هذا الضابط المكلف
 بالحراسة ولكن الحاج مرادا لم يزد على ان اطرق براسه ليشير الى
 أنه يعرف ، ثم زابل القرعة .

قال الضابط المكلف بالحراسة : « ماذا يستطيع المرء ان يصنع
 معه ؟ قد يرشق فيك شجرة ، وينتهى الأمر ! ان الإنسان لا يستطيع
 ان يحدث اولئك الشياطين ! ارى انه اخذ يستشيط غضبا » .

ولم يكده الفسق يبدأ حتى جاءه من الاكام جاسوسان يقطي وجههما
 الى العينين قلنسوتان ، فقادهما الضابط المكلف بالحراسة الى غرفة
 الحاج مراد . وكان أحدهما يدينا أكمد (1) من اهل تافلتيا والثاني
 رجلا عجوزا نحيل . ولم تكن الاخبار التي نقلها سارة . إذ ان
 أصدقاء الحاج مراد الذين أخذوا على عواتقهم انقاذ أسرته يمانون
 الآن في ذلك معانمة باتة خوفا من شامل الذي توعد بانزال أقطع
 التعذيب بكل من يحاول مساعدة الحاج مراد . فلما استمع للرسولين
 جلس ومرفقا على رجليه المتقاطعتين وأحنى راسه المعمم وظل صامتا
 وقتا طويلا .

وأعمل التفكير في عزم وثبات . وكان يعرف أنه يتدبر الأمر الآن
 المرة الأخيرة وأن من واجبه الانتهاء الى قرار . وأخيرا رفع راسه
 وأعطى لكل من الرسولين قطعة ذهب ، وقال : « انطلقا ! » .
 - « اى جواب سيكون ؟ » .
 - « سيكون الجواب كما يريد الله ... انظفا ! » .

ونهض الرسولان وانصرفا وظل الحاج مراد جالسا على السجادة

(1) الاكمد : من تغير لونه وذهب صفاءه .

يتكئء بمرفقة على ركبتيه ، وعلى هذا النحو جلس طويلا واخذ يتأمل .

وفكر : ماذا على ان اصنع ؟ اتخذ شاملا بكلامه واعود اليه ؟ انه تعلب وسوف يخالتي . وحتى اذا لم يخالتي فمن المستحيل مع ذلك الاذعان « لهذا الكذاب الأحمر ... مستحيل ... لانه وقد عملت الآن مع الروس لن يثق بي » . هكذا فكر الحاج مراد ، وتذكر اسطورة معروفة في تافليسا موضوعها باز (1) اصطيد وعاش بين بني الانسان ، وعاد بعد ذلك الى فصيلته بالاكام . عاد بليس قيذا ذا اجراس ، فلم تستقبله البيزة بل قالت له : « طر عائدا الى حيث علموا بك هذه الاجراس الفضية ، فنحن لا اجراس لدينا ولا قيود » . ولم ينتج البيزي ان يرحل عن وطنه ومكث ، الا ان البيزة الاخر لم يريده على ان يبقى هناك وتقروه حتى مات .

وجال في خاطر الحاج مراد : « لسوف بتقروني حتى اموت على هذه الوتيرة . فهل اتقى هنا واخضع القوقاز لحساب القيصر الروسي وانال الصيت والاقاب والغنى ؟ » .

وفكر وهو يتذكر محادثة مع فوروتسوف وعبارات الاطراء التي قالها له الامر : « هذا يتسنى عمله ، ولكن ينبغي لي ان اقرر فوراً والا اهلك شامل اسرتي » . وفي تلك الليلة ظل مستيقظا يفكر .

- ٢٣ -

والى ان وافى منتصف الليل كان قد استقر على قرار . قرر ان يطير الى الجبال ويدخل قديتو عنوة مع من ظل على ولائه له من الافاريين على ان يهلك ان يتقد أسرته . واما هل يعود بعد اتقادها الى الروس او يفر الى خان زاخ ويقاثل شاملا فهذا ما لم يستقر عليه . وكان كل ما يعرفه انه ينبغي له قبل كل شيء ان يفر من الروس الى الجبال . وبدأ من فوره بتنفيذ الخطة .

وسحب مشلحه الاسود اللبد من تحت وسادته وذهب الى غرفة تابعيه ، وكانوا يسكنون الجانب الاخر من البهو . ولم يكذ يدخل البهو الذي ظل باباه الخارجى مفتوحا حتى لفته طراوة الليلة الندية التي يضيئها القمر وملا آذانه صغير عدد من المناديل (1) وزغردتها في روضة المنزل .

وعبر البهو وفتح باب تابعيه ولم يكن هناك نور ولكن القمر في تربيعة الاول ارسل ضياءه الى الداخل من النافذة . وكانت منضدة وكريسيان قائمة ناحية بالفرفة ، وكان اربعة من تابعيه راقدين فوق السجاجيد او الطيالس على الارض ، ونام حنفي في الخارج مع الخيل وسمع جمزاليو الباب بصر فنهض وتلفت حوله وراه . ولما عرفه رقد من جديد . اما الدار الذي يرقد الى جواره فقد هب واقفا واخذ بلبس مشلحة في انتظار اوامر سيده . واستمر خان محمد وباطة في النوم . والقي الحاج مراد على المنضدة المشلح الذي احضره والذي صلحها بصوت خفي او واهن صدر عن الذهب المخطط فيه .

وقال الحاج مراد وهو يسلم الدار القطع الذهبية التي تسلمها في ذلك اليوم : « خبيء هذه ايضا من الداخل » . فأخذها الدار وذهب في الحال ومضى تحت ضوء القمر وسحب سكيننا صغيرا من تحت خنجره واخذ يفتق خياطة بطانة المشلح . ونهض جمزاليو وجلس ورجلاه متقاطعتان .

فقال الحاج مراد : « وانت يا جمزاليو ، قل للرجال ان يتفحصوا البندقيات ويمدوا اللخيرة ، فسنذهب فدا » فأجاب جمزاليو :

(1) المناديل : جع عند تديلب وهو طائر صغير حسن الصوت .

(1) البيزي : طائر من فصيلة الصقر والجمع بيزة « يضم لفتح » .

« لدينا الرصاص والبارود ، وسيكون كل شيء معدا » . وهذرى صوت عال بشيء غير مفهوم . وفهم فيم أمر الحجاج مراد بتعبئة البندقيات . ولم يشته منذ البداية الا شيئا واحدا وهو ان يذبح ويظن اكبر عدد ممكن من الروس ثم يفر الى الاكام ، ونمت هذه الشهوة يوما بعد يوم . وقد رأى الآن على الأقل ان الحاج مرادا يريد ذلك فظابت نفسه .

ولما انصرف الحاج مراد ايقظ جمزالو رفاقه ، وامضى اربعتهم ما بقى من الليل يتفحصون بندقياتهم وقراراتهم وصواناتهم (١) وعتادهم ، ويستيدلون بما تلف منها ، ويذرون بارودا جديدا فى الاوعية ، ويسدون برصاص ملفوف فى خرق بالية مزينة رزما (٢) تحوى كل منها القدر المضبوط من البارود لكل طلقة ويشحدون ، سيوفهم وخنجرهم ، وبدهنون نصالها بالشمع .

وقبل ان ينبج الصباح خرج الحاج مراد مرة اخرى الى البهو يبتنى الماء لوضوئه واصبحت الاغانيد العنادل التى انطلقت تستخفها النسوة فجرا اكثر تعاليا واتصالا بينما سمع من غرفة تبعه - حيث كانت تشحد الخناجر - طن الحديد واحتكاكه المنتظم الضربات على الحجر .

واستحضر الحاج مراد لنفسه بعض الماء من دن ووصل فعلا الى بابيه عندما سمع من غرفة مريديه - فوق اصوات تشحد النصال - نغفات صوت حنفى العالبة وهو ينشد اغنية معروفة ، فوقف ليستمع . وقد وصفت الاغنية كيف غنم من الروس احد البواسل - حمزة - مع اتباعه الشجمان قطيعا من الافراس البيضاء ، وكيف اقتفى اثره امير روسى الى ما وراء (ترك) واحاط به مع جيش كبير كالغابة ثم استطردت تصف كيف قتل حمزة الافراس وكيف خندق رجاله خلف الحصن الخائر (٣) وحاربوا الروس طالما وجد رصاص فى بندقياتهم وخناجر فى احزمتهم ودم فى عروقهم . على ان حمزة قبل موته رأى طيوراً تطير فى السماء فصاح بها :

طيرى ابنتها المجنحات ، طيرى الى منازلنا !
وخبرى امهاتنا وخبرى اخواننا وخبرى عذارانا البيض .
اننا متنا محاربين فى سبيل الغزو ،

(١) الصوانه « بفتح فشدة » : حجر شديد يقذف فيصدر عنه شرر وهى اول مراحل استخدام النار .

(٢) الرزمة بكسرة لسكون : ما جمع وشد مما ختم . من باب نصر وسمع : تخن واشتد .

خبريهن ان جسوننا لن ترقد ابدا فى القبور .
فستلتمها الدئاب وتمزقها اربا اربا ،
وستنقر الاغربة اللحم ، والنسور عيوننا .

وبهذا انتهت الاغنية . وعند الكلمات الاخيرة التى انشدت بلحن حزين انضم صوت باطة المرح القوى بهتفا عاليا « لا اله الا الله ! » انتهى بصياح حاد . ثم سكن كل شيء من جديد ، اللهم الامن « تشك تشك تشك تشك » ومن صفير العنادل من الحدقة والا شحد الاسلحة الرتيب ، ومن هسهسة (١) الحديد يتزلق فى سرعة على طول المسن وكان الحاج مراد غارقا فى الفكر الى حد انه لم يلاحظ كيف امال الابريق حتى اخذ الماء ينسكب منه . فهز راسه مبهوتا ودخل الغرفة من جديد وبعد ان توشأ لصلاة الصبح فحص عن اسلحته وجلس على فراشه . ولم يبق امامه ما ينشئ عمله ولكى يستمع بالركوب الى الخارج كان عليه ان يستأذن الضابط المكلف بالحراسة ولكن كان ضوء النهار لم ينبثق بعد والضابط المكلف بالحراسة ما يزال نائما .

واذكرته اغنية حنفى بالاغنية التى الفتها امه عقب ولادته مباشرة وهى الاغنية التى وجهت الى ابيه واعادها الحاج مراد على لوريس ميليكوف .

وخيل له ان يرى امه امامه غير متفضنة ولا شيباء ، مفلجة الاستان كعمده بها اخيرا ، الا انها كانت شابة مليحة قوية الى درجة استطاعت معها حمله فى سلة على ظهرها عبر الجبال الى ابيها ، وذلك عندما كان صبيا ثقيل الوزن فى الخامسة من عمره .

وقد اذكرته ذكراه لنفسه طفلا صغيرا بابنه المحبوب يوسف الذى حلق له شعر راسه بنفسه اول مرة - وقد اصبح يوسف هذا الآن باسلا فتيا وسيما - وصوره لنفسه كحالته عندما رآه آخر مرة يوم رحل عن تسلمس ، وقد احضر اليه يوسف الفرس وسأله ان يسمح له بمرافقته .

وكان كامل اللبس والتسلح « وقاد فرسه الخاص من عنائه وقد نم وجهه الوسيم الوردى وكل جسمه الطويل الناحل على الجرداة والشباب والفرح بالحياة (وكان أطول من ابيه) . وكان الحاج مراد الذى يعجب بابنه - وسره دائما عرض منكبته رغم صغر سنه

(١) مَسْمَس الدرع او الحل : سات .

وبالحرققتين (١) الفضتين البالغتي الاتساع ، وبالخصر الطويل
الرشيق ، وبشدة ذراعيه الطويلتين ، وبقوة حركاته ومرورتها وخفتها
جميعا .

قال الحاج مراد : « خير لك ان تبقى . ستكون وحدك بالمنزل
الآن . اعتن بأمنك وجسدتك » تذكر النظرة الجريئة الابية ونشوة
السرور التي اجاب مضمها يوسف بقوله انه ما دام حيا فلن يمسه احد
امه او جدته بسوء . ومع ذلك فقد ركب يوسف ورافق والده حتى
الجدول ، وهنا استدار عائدا ومنذ ذلك الوقت لم ير الحاج مراد
زوجيه ولا امه ولا ولده ، وهذا هو الولد الذي هدده شامل ببقوه
عينيه ! ولم يشأ الحاج مراد ان يفكر فيما عسى ان يصنع بزوجه .
وقد استشارته هذه الافكار الى حد انه لم يقدر على ان يجلس في
سكون بعد فهب قائما وذهب في سرعة يعرج الباب وفتحته ونادى
الدار . ولم تكن الشمس قد اشرقت بعد ولكن الضوء كان كافيا
جدا . وكانت العنادل ما تزال تفتنى .
فقال : « اذهب واخبر الضابط باننى اريد ان اخرج راكبا ،
واسرج الافراس » .

٢٤ -

وكان عزاء بتلر الوحيد كل هذا الوقت الشعر الحربي الذي انتقطع
له ، ليس فقط في اثناء ساعات العمل ولكن في حياته الخاصة كذلك
وكان يلبس بدلته الشركسية ويركب متبخترا هنا وهناك . وذهب
مرتين في كمين مع بجدانوفتش وان لم يكشف او يقتل احدا في
المرتين . وقد بدأ لبتلر ان يقربه من بجدانوفتش ومصادقته اياه -
هو المشهور بالشجاعة - من دواى سروره وظهوره بمظهر الهسالة .
ووفى دينه بعد ان اقترض المال من يهودى بالزبا ، ومعنى هذا انه
ارجأ مشاكله دون ان يحلها . وجهد في الا يفكر في مركزه وان
يجد السلوان ليس في الشعر الحربي وحسب بل في الخمر كذلك ،
فصار يشرب منه في كل يوم اكثر مما شرب في امسه واخذ خلقه
يضعف يوما بعد يوم ، حتى لم يصبح الا ذلك اليوسف العفيف الذي
كانه فيما يخص مارية ديمترييفنة ، بل على العكس اخذ يفلط في
مطارحتها الغرام ، فلم يلق لدهشته الا صدا قويا صريحا سجل عليه
العار .

وفي آخر ابريل وصلت الى الحصن فصيلة عزم بارياتنسكى على
ان يصيب بها تقدما مباشرا الى قلب ششنيا التي اعتبرت حتى ذلك
الوقت معا لا يمكن اجتيازه . وضمت هذه الفصيلة سريتين من فرقة
الكاباردا كانت سرايا الكورين ، بمقتضى العادات القوقازية ، تعاملهما
معاملة الضيوف . وانزل الجنود في التكنات وأولهم لهم عشاء
لا يشمل عصيدة الحنطة السوداء ولحم البقر وحسب بل كذلك
الفودكا . وشارك الضباط في مساكن ضباط السكورين ! وأولم
القيمون للذين اتوا حديثا - كما هي العادة - عشاء انشد فيه
مغنو الفرقة وانتهى بدورة كئوس ولما فعل البكباشى بتروف واستحال
وجهه فصار ممتمتع اللون اغبره جلس على كرسي متباعد الساقين
كانما يركب فرسا ، واستل سيفه وطعن اعادى وهميين واخذ يسب
ويضحك بالتعاقب ، يقبل احدهم تارة وطورا يرقص على ايقاع اغنيته
المفضلة :

« بدأ شامل يشور في الايام التي خلت

(١) الحرققة « كالبسلة » : رأس الورك وجميعا حرافق وحراقيف .

فحاول (ول ول ول) عن السنين التي تلت ا .
وكان بتلر هناك ايضا . فحاول ان يرى الشعر الحربى حتى فى
هذا وان أسف من أعماق نفسه على البكاشى ، ومهما يكن فقد كان
اسكاته مستحيلا ، ولما شعر بان الابخرة تصعد الى صميم راسه
زابل الفرقة فى سكون وذهب الى بيته .

وأضاء القمر البيوت البيضاء والحجارة التى على الطريق . وكان
الضوء قويا الى حد ان كل حصة وكل قشة وكل كومة صغيرة من
التراب كانت ظاهرة للعين . ولما سُارَف بتلر الى البيت لقي مارية
ديمترييفنة وعلى رأسها ورقبتها شال . وكان قد اجتنبها بعد الصدمة
التي صدمته اياها شعورا منه بالخجل . أما الآن تحت ضوء القمر وبعد
الخمير الذى شربه فقد سره ان يلقاها ورغب فى ان يصلحها من
جديد .

وسأل : « الى أين تنطلقين ؟ » .

فأجابت فى ابتسامة : « لاسال عن رجلى المعجوز » . وكان صدها
لتودد بتلر صادرا عن اخلاص وتصميم الا انها لم تحب اجتنابه اياها
كما فعل آخر الأمر .

« فبم تزعين نفسك من اجله ؟ سيعود حالا » .

« ولكن هل يفعل ؟ » .

« ان لم بعد فسيأتون به » .

« هو كذلك ، ... هذا حق كما تعلم ! ... ولكن انظن الاولى
بى الا اذهب ؟ » .

« نعم انظن . وخير لنا ان نذهب الى البيت » .

واستدارت مارية ديمترييفنة ومشت الى جانبه . وسطح ضياء
القمر حتى بدأ كأن هالة تتحرك على طول الطريق حول خيالى
راسيها . وكان بتلر ينظر الى تلك الهالة معتزما ان يخبرها بانها
يميل اليها كمهدد دائما ، ولكنه لم يعرف كيف يبدأ . وانتظرته لعله
يتكلم . وأسرنا صامتين الى قرب الدار عندما ظهر بعض الخيالة من
حول الزاوية . وكان هذان ضابط وحارسه .

فقالت مارية ديمترييفنة وهى تخطو نحو الخارج : « من هذا
الذى يأتى الآن ؟ » وكان القمر الى خلف الراكب فلم تميزه حتى
اتى اليهم . وكان القادم بطرس نيقولايفتش كامينيف ، وهو ضابط
سبقت له الخدمة مع البكاشى ولذا تعرفه مارية ديمترييفنة فقالت
تخاطبه : « أهذا انت يا بطرس نيقولايفتش ؟ » .

قال كامينيف : « انه اباى . آه بتلر ، كيف حالك ؟ » ألم تنم
بعد ؟ تمشى مع مارية ديمترييفنة ! الاولى ان تلقى بالك والا وهبك
الضابط اياها ... أين هو ؟ .

وأجابت مارية ديمترييفنة مشرمة الى الناحية التى تصل منها
أهازيج تنشد على أيقاع صوت ظلمباس : (١) . « استمع الى تلك
الناحية ! انهم يقفون حفل أنس » .

« فبم ؟ أقيم قومك حفل أنس فيما بينهم ؟ » .

« كلا ، وأنا وصل بعض الضباط من هساف يورت فاتحفل
٣٤ » .

« آه ، هذا حسن ؟ سأتى فى الموعد المناسب ... والآن أريد ان
أرى البكاشى لحظة » .

فسأل بتلر : « فى عمل ؟ » .

« أجل موضوع عمل بسيط » .

« خير أو شر ؟ » .

« حسب الظروف .. خير لنا وشرب لبعض الناس » . وضحك

كامينيف والى تلك اللحظة كانوا قد وصلوا الى بيت البكاشى .
فصرخ كامينيف مخاطبا واحدا من رجاله القوزاق : « يا شيخيريف
أبت الى هنا ! » .

وركب زعيم قوزاقى من بين الآخرين . وكان يلبس البذلة

الرسمية المعتادة وحدائين عاليين ودنارا ويحمل خلفه خرجه (٢) .

قال كامينيف وهو يترجل : « حسنا ، سنستخرج الأشياء .

وترجل القوزاقى كذلك واستخرج كيسا من الخرج ، فأخذه

كامينيف وألج يده .

« اسمع . هل أريك مستحدثنا ؟ أسوف لا تخافين يا مارية

ديمترييفنة ؟ » .

فأجابت : « وبم أخاف ؟ » .

فقال كامينيف « ها هو ذا ! تعرفه ؟ » ، واستخرج رأس رجل

ورفعها فى ضوء القمر .

وكان رأسا حليقا ، ذا حاجبين ناثين ولحية وشارب أسودين

مقصوسين الى حد القصر ، تنفتح احدى عينيه وتغمض الأخرى

نصف غمضة . وكانت الجمجمة الحليقة ملفوفة ، ولكن لا الى

(١) الظلمباس : طبل يلقى على نوع من الاواني المعدنية كالغلايات .

(٢) العرجة : كالقلمة : جمع خرج .

نهايتها ، وبالأنف دم متجمد ، وكانت الرقبة ملفوفة في فوطة ملطخة بالدماء . وبصرف النظر عن الجراح العديدة الموجودة بالرأس عبرت الشفتان الزرقاوان عن معنى من معاني الطفولة الرقيقة . ونظرت إليها مارية ديمتريفنة واستدارت بعيدا وأسمرت الى البيت دون أن تنبس بكلمة . ولم يستطع بتلر أن ينزع عينيه عن الرأس المروع فلقد كان ذلك رأس الحاج مراد الذى أمضى معه أخيرا جدا أسبسته في لقاء ودى .

فسال : « ما معنى هذا ؟ من الذى قتله ؟ » .

« اراد أن يفتل منا فوق في الفخ ! قال كامينيف هذا واعداد الرأس الى القوقازى وذهب الى البيت مع بتلر .

وأضاف : « لقد مات ميتة البطل » .

« ولكن كيف حدث كل هذا ؟ » .

« انتظر قليلا . عندما يأتى البكباشى سأخبرك بكل شيء عنه ، فهذا ما أوقدت من أجله . وسأطوف به على كل الحصون (والمخلات) وأعرضه » .

وأرسل فى طلب البكباشى فعاد يرافقه ضابطان آخران مخموران مثله - وأخذ يقبل كامينيف .

قال كامينيف : « ولقد أحضرت لك رأس الحاج مراد » .

« كلا .. اقتل ؟ » .

« أجل ، اراد أن يهرب » .

« لقد كنت أقول دائما أنه سوف يخدمهم ! وابن هو ؟ .. اقصد الرأس .. دعنا نره » .

ونودى على القسوزاقى فاستحضر الكيس الذى فيه الرأس واستخرجه ونظر اليه البكباشى طويلا بعينين ثملتين .

فقال : « ومهما يكن فقد كان فتى ظريفا . دعنى أقبله ! » .

وقال أحد الضباط : « صحيح . لقد كان رأسا صنديدا » .

وبعد أن نظر الجميع اليه أميدت الى القوقازى الذى دسه فى كيسه محاولا أن يخفف اصطدامه بالأرض جهد المستطاع .

وسأل ضابط : « اسمع يا كامينيف ، أى خطاب تلقى عندما تمرض الرأس ؟ » .

فصرخ البكباشى : « لا لا .. دعنى أقبله ، لقد أعطانى سيفا ؟ » .

وخرج بتلر الى السقيفة .

وكانت مارية ديمتريفنة جالسة على الدرجة الثانية ، فنظرت

من حولها الى بتلر ثم استدارت من فورها فى غضب .

فسال : « ما خطبك يا مارية ديمتريفنة ؟ » .

« كلكم سفاحون ! انى أمقت هذا ... انكم سفاحون حقا ! »

ونهضت .

ولاحظ بتلر غير عارف بما يتبى له أن يقول : « قد يحدث هذا لى امرئ .. تلك هى الحرب » .

وردت وهى تنزل الدرج وتدخل البيت من الباب الخلفى :

« الحرب الحرب ، معلوم ! سفاحون ولا شيء غير ذلك . جسد الميت يجب أن يصاد الى الأرض ، ومع ذلك يسخرون هناك .. سفاحون حقا » .

وعاد بتلر الى الغرفة وطلب الى كامينيف أن يقص عليه تفصيلا كيف حدث هذا الامر .

وقص عليه كامينيف ، واليك هو ما حدث .

سمح للحاج مراد أن يخرج رابكا الى ارباض المدينة ولكن على الا يكون ذلك بغير حرس من القوزاق ، ولم يكن في نوخا منهم غير نصف سرية كان الضباط يستخدمون منهم عشرة . فاذا ارسل الى الخارج عشرة مع الحاج مراد (بناء على التعليمات الواردة) تحتم على هؤلاء الرجال ذاتهم ان يذهبوا مرة في كل يومين . وعلى هذا ، فبعد ان ارسل الى الحاج مراد عشرة في اليوم الاول تقرر ان يرسل في المستقبل خمسة ليس غير ، وطلب الى الحاج مراد الا يستصحب جميع تابعيه . الا انه في الخامس والعشرين من ابريل خرج رابكا مع الخمسة جميعا ، فلما ركب ولاحظ (القومندان) ان تابعيه الخمسة ذاهبون معة اخبره بان من المحرم استصحابهم جميعا . غير ان الحاج مرادا تظاهر بأنه لم يسمع ، ومس فرسه ، فلم يصر (القومندان) .

وركب مع القوزاق نزاروف وهو ضابط صف يحمل صليب سان جورج لشجاعته . وكان فتى صغيرا قوى البنية ، احمر الشعر داكنة له نضرة الورد . وكان هو الاكبر سنا بين أسرة فقيرة من طائفة « المؤمنين القدماء » ، ترعرع ولا والده ، وكان يعول امة العجوز وثلاث اخوات واثنين من الاخوة .

فصاح (القومندان) : « القى بالك بانزاروف . لازمه ؟ » .
فاجاب نزاروف : « سمعا وطاعة يا حضرة المحترم ؟ » وارتقى ركباه واحكم وضع البندقية التي علقت فوق ظهره وبدأ يخب (١) على ظهر كعبته (٢) الخصى الضخم الجميل وتبعه اربعة من القوزاق وهم : فرايونتوف وهو طويل نحيف ولصن وقاطع طريق مثابر (وهو الذي بيع جيمزالو بارودا) واجناتوف وهو فلاح ضليع يباهي بقوته وان لم يظل شابا وقد اوشك على نهاية خدمته العسكرية ، وميشكين وهو صبي واهن كان كل امرئ يضحك منه ، وبتراكوف الفتى الاشقر والابن الوحيد لاهمه وكان دائم الظرف والمرح .

(١) احب الفرس : راجع بين يديه ورجليه اي قام على ارجلها مرة وعلى الاخرى مرة .
(٢) الكعبت من الخيل : « بضم ففتح » للمذكر والؤنث ما كان لونه بين الاسود والاسمر وهو تصغير كعب « بضم فسكون » .

وكان الصباح كثير الضباب ولكنه صحا فيما بعد . اما ورق الشجر المتفتح ، والحشائش الحديثة العطاء ، والحنطة النابتة ، وتموجات النهر السريع التي ترى في وضوح الى يمين الطريق ، فقد تالقت جميعا في ضياء الشمس .

وركب الحاج مراد يتقدم مستائيا وفي اثره القوزاق وتابعوه . ركبوا للزهة على طول الطريق الذي يلي الحصن . ولقوا نساء يحملن سلايا على رءوسهن ، وجنودا يسرون مركبات ركوب ، ومركبات نقل صاخبة يجرها جواميس . فلما قطع الحاج مراد نحو ميل ونصف مس فرسه الكردي الابيض فبدأ بمسدو عدوا ارغم التبع والقوزاق على ان يخبوا خبيا سريعا ليحاذوه .

فقال فرايونتوف : « آه ، لديه فرس جميل تحته ، ولو انه ظل عدوا لانزلته في الحال » .

« نعم ايها الزميل ، لقد عرضت ثلثمائة روبل في تفليس ثمتا له .. » .

قال بتراكوف : « ولكن استطيع ان اسبقه بفرسى ! » .
« تسبقه انت ؟ شيء محتمل ؟ » .

وظل الحاج مراد يزيد في سرعة خطوه .

فصرخ نزاروف وقد اخذ يدرك الحاج مرادا : « هيه اههسا الاخ ، ما ينبغي لك ان تصنع هذا ، اثبت ؟ » .

وتلفت الحاج مراد من حوله ولم يقل شيئا بل استطرد رابكا في السرعة ذاتها .

فقال اجناتوف : « القى بالك ، لا بد ان هؤلاء الشياطين يبيتون شيئا ! انظر كيف يمرقون » .

وهكذا ركبوا قاطعين ما يقرب من الميل متجهين الى الجبال . فصاح نزاروف : « اقول لك ان هذا لا يفي بالفرض ؟ » .

ولم يجب الحاج مراد ولم تلتفت وانما زاد في سرعته الى درجة الصدو .

فصرخ نزاروف وهو يخز فرسه ليسرع . « كلام فارغ ! لن تفلت » والهيب ظهر خصية الضخم الكعبت بضربة من سوطه ، وارتفع فوق ركب سرجه ، وانحنى الى الامام ، وطار باقصى سرعة في اثر الحاج مراد .

وكانت السماء جد مشرقة والجو جد صحو ، وعزفت الحياة في روح نزاروف اعذب الالحان عندما أصبح فوق فرسه القوى الجميل

« يا رحمن يا رحيم ! يا الله ، يا رب ! ماذا صنعوا ؟ » هكذا هتف قائد الحصن وهو يمسك رأسه بيديه عندئذ سمع يهرب الحاج مراد . وصاح وهو يبغى الى بيان مشكين : « لقد آذوني ! لقد تركه بفلت أولئك الأوغاد ! » .

وأعلن انذار الخطر في كل مكان ، ولم يرسل قوزاق تلك الجهة وحدهم خلف الفارين بل أرسلت كذلك كل وحدات الجيش المرابط التي تسنى حشدتها من (المجلات) الموالية لروسيا . وأعلن عن مكافأة قدرها ألف روبل مقابل القبض على الحاج مراد حيا أو ميتا . ولم تمض ساعتان على فراره وفرار تابعيه من القوزاق حتى كان مائتا فارس يتبعون الضابط المكلف وهم يعدون ليدركوا الفارين ويقبضوا عليهم .

وبعد أن ركب الحاج مراد بضعة أميال في الطريق العامة أوقف فرسه اللاهث الذي بلله العرق وانتقل من أبيض الى رمادي . وكان من الممكن أن يرى الى يمين الطريق دارات (محلة) بنردزيك وماذنها والى يسارها بعض الحقول يليها النهر . ومع أن الطريق الى الجبل واقعة الى اليمين فقد استدار الحاج مراد الى اليسار في الجهة المضادة مقدر أن من المؤكد أن يتجه متعمقوه يميناً ، بينما يهجر هو الطريق ويعبر الأثران ويخرج عبر الطريق العام الى الجهة الأخرى حيث لا ينتظر قدمه أحد ، ثم يركب أزاها الى الغابة ، وبعد أن يعبر النهر مرة أخرى يتخذ طريقه الى الجبل .

قلما انتهى الى هذه النتيجة استدار بسرعة . ولكن ظهر أن الوصول الى النهر من المستحيل ، وقد اغتمر توا حقل الأرز الذي كان يبغى عبوره كما يجري عادة في الربيع حتى اضغى مستنقعا غاصت فيه قوائم الخيل الى ما فوق أرساقها (1) . فاستدار الحاج مراد وتابعوه تارة الى اليمين وطورا الى اليسار املا في العثور على أرض أكثر تيسرا ، إلا أن الحقل الذي ارتادوه كان جميعه مفتعرا كذلك واضغى الآن مشبعا بالماء .

واستخرجت الخيل قوائمهسا من الطين اللزج الذي غاصت فيه محدثة صوتا بطقة كطقة الفلينة حينما تجذب من الزجاجاة ، وصارت تتوقف وتلهث بعد كل بضعة خطوات . وعلى هذا النحو طال نضالهم

(1) ارسغ وارساغ : جمع رسغ ، يشم فسكون ، وهو الموضع المستنق بين الحافر والوظيف من اليد والرجل . أو الفصل ما بين الساعد والكف أو الساق والقدم ومثل ذلك من العادة .

جسما واحدا وطار على طول الطريق الناعمة السلسلة خلف الحاج مراد ، هذا التي حد أن احتمال حدوث أي شيء يحزن أو يخيف لم تدر بخلده . وقد تهال لانه كان في كل خطوة يدنو من الحاج مراد . وقدر الحاج مراد من وقع حوافر الفرس الضخم التندانية من خلفه انه سيلحق في الحال : فامسك غدارته يمينه ، وأخذ في خفة يكبح يسراه جواده الذي أهاجه سماع وقع الحوافر من خلفه .

وهتف نزاروف وقد وازى الحاج مرادا أو كاد ومد يده ليمسك عنانه « لا ينبغي لك ، اسمع الكلام ! إلا ان رصاصة أطلقت قبل أن يدرك ذلك العنان فصاح ممسكا بصدرة . « ماذا أنت صانع ؟ عليكم بهم يا رفاق ؟ » وترنح ووقع الى امام على قربوس (1) السرج . ولكن الجليليين سبقوا في اعداد اسلحتهم وأطلقوا غداراتهم على القوزاق وانقضوا عليهم بأسياهم .

وتعلق نزاروف برقبة الفرس الذي نهب الأرض ركضا حول رفاقه . وسقط الفرس الذي تحت اجناتوف وهرس رجليه . واستل اثنان من الجليليين سيفهما دون أن يترجلا واجتزا رأسه وفراعيه . وكان يتراكوف على وشك أن ينقض لنجسدة رفاقه عندما أصابته رصاصتان - احدهما في صدره والثانية في جنبه - وخر من فوق فرسه كالجواقي (2) .

واستدار مشكين وانطلق صوب الحصن ، واندفع من خلفه حنفي وباطة ولكنه كان قد ابتعد بونا شاسعا ولم يقدر على ادراكه . فلما راوا أنهم لن يستطيخوا ان يلحقوا به عادوا الى الآخرين .

واستلقى يتراكوف على ظهره مزق العدة متجها بوجهه الفتى الى السماء ، وصار يلهث ابتفاء التنفس كالمسكة . وبعد ان قضى جزالو بسيفه على اجناتوف حصد نزاروف أيضا والقاه من فوق فرسه .

وأخذ باطة اجربة الفسك من الذين قتلوا . ورغب حنفي في أن يأخذ فرس نزاروف ولكن الحاج مراد نادى عليه بأن يتركه واندفع الى الامام على طول الطريق . وعدى مرادوه في اثره وقد طردوا فرس نزاروف الذي حاول أن يتبعهم . وكانوا قد وصلوا الى حقول الأرز التي تبعد أكثر من ستة أميال عن نوحا عندما أطلق عيار نارى من قلعة ذلك المكان للتنبه .

(1) قربوس السرج : قسمة القوس المرتفع من قدام القمعه ومن مؤخره .
(2) الجواقي : ما يسيه العامة بالثاول .

حتى اخذ الفسق يقترب .

ولم يكونوا قد بلغوا النهر بعد ...

وكانت الى يسارهم رقعة من ارض اكثر ارتفاعا كثيرة الشجيرات ، فاعتزم الحاج مراد ان يركب الى داخل تلك الادغال وان يبقى هناك الى الليل حتى يريح خيلهم المنهكة ويدعها ترعى . اما الرجال فقد تناولوا شيئا من الخبز والخبز كانوا حملوه معهم واخيرا اقبل الليل . واختبا القمر - الذي كان يضيء اول الامر - خلف التل وظلمت الدنيا . وكثرت في تلك الارياض العنادل ووجد اثنان منها في تلك الشجيرات . وقد سكنت هذه العنادل طالما كان الحاج مراد ورجاله يحدون ضوضاء بين الشجيرات . فلما سكنوا بدات الطيور من جديد ينادى بعضها البعض وتفرد .

ولما كان الحاج مراد متيقظا لسلك اصوات الليل اصفى اليهسا بشكل لا ارادى ، واذكرته زغرودة بالاغنية الخاصة بحمزة التي سمعها في الليلة السابقة عندما ذهب يتقى الماء . وقد يجد نفسه الآن في اية لحظة في مثل الموقف الذي كان فيه حمزة ، وخال ان الامر سيكون كذلك . وعلى حين فجأة احست نفسه بخطورة الموقف فيسقط طيلسانه وتوضا . ولم يكذب ينه حتى سمع صوتا يدنو من مكمنهم . وكان وقع حوافر كثير من الخيل تخوض المستنقع . وجرى باطة الحاد النظر الى احد اطراف الاجمة وحلق من خلال الظلام فرأى اشياحا سوداء وكانت رجالا على اقدامهم وعلى ظهر الخيل .

وتنه حنفي الى حشد مماثل في الناحية الاخرى . وكان اولئك كارجانوف قائد المنطقة مع جيشه المرابط .
فقال في خاطر الحاج مراد : « هكذا . واذن فنسحارب كما حارب حمزة » .

لقد حدث عندما ضرب اذارال الخطر ان اندفع كارجانوف مع شزيمة من رجال الجيش المرابط والتوزاق متمقين الحاج مرادا ولكنهم لم لم يقدروا على ان يقفوا له على اثر . وبعد ان فقد الامل وازمع العودة الى مقره لقي حول الفسروب رجلا عجوزا واستفهم منه هل رأى خيالة هنا او هناك . فاجاب الرجل العجوز بالاجاب : لقد رأى ستة من الفرسان يتمشرون في حقل الارز ثم راهم يدخلون الاجمة حيث كان هو نفسه يحتطب . فاستدار كارجانوف الى خلف واستصحب الرجل العجوز ، ولما رأى الخيل القيذة اتقن بوجود الحاج مراد هناك .

وطوق الاجمة بالليل ، وانتظر حتى الصباح ليأخذ الحاج مرادا حيا او ميتا .

ولما ادرك الحاج مراد انه قد احيط به ، ولما كشف حفرة قديمة بين الشجيرات قرر ان يخندق فيها وان يقاوم ما بقيت قوته وذخيره واخير زملاؤه بذلك وامرهم بان يكوموا جرفا امام الحفرة ، واخذ تابعوه يشستظون من فورهم في قطع الفصون واحتفار الارض بخناجرهم ويصطنعون خندقا ، وعمل الحاج مراد معهم بنفسه . ولم تكذ الدنيا تضيء حتى ركب قائد شزيمة الجنود المرابطين وصعد الى الدقل وصاح :

- « اسمع يا حاج مراد ! استسلم ! فحن كثرة وانتم قلة » .

وكان الجواب طلقة بندقية ، وارتفعت من الحفرة سحابة صغيرة من الدخان ! واصابت رصاصة فرس رجل الجيش المرابط الذي ترنج تحته وبدا يسقط . وبلدات تدوى بدورها بنادق الجنود المرابطين الذين وقفوا على تخوم الاجمة وصفر رصاصهم وهمهم يقطع اوراق الشجر والفصون ويصطدم في الجرف لا في الرجال المخدقين من خلفه . ولم يصب الا فرس جهازو الذي شرد عن الافراس الاخر ، برصاصة في راسه على انه لم يسقط بل قطع قيوده ، واندفع بين الشجيرات ، وجرى الى الافراس الاخر وكبس بالقرب منهم ، وروى الحشائش الجديدة بدمه .

ولم يطلق الحاج مراد ورجاله الا كلما تقدم جندي من المرابطين . وقلما اخطاوا الهدف وجرح ثلاثة من هؤلاء الجنود ، اما الباقون فلم يصح مزهمم اصلا على ان يندفعوا الى الخندق ، بل اخذوا يتفقهرون من خلفهم الى ابعد وابعد يطلقون النار على بعد وخط عشواء . واستمر هذا اكثر من ساعة . وعلت الشمس الى ما يقرب من نصف ارتفاع الشجر ، وكان الحاج مراد يفكر فعلا بان يقفز على فرسه ويحاول ان يتخذ طريقه الى النهر حينما . سمعت صرخات رجال كثيرين وصلوا توا . وكان هؤلاء هم الحاج اغا بن المختولى وابناعه ، وكانوا نحو من مائتين . ولقد كان الحاج اغا يوما من اخوة الحاج مراد في العهد وعاش معه في الجبال ولكنه من بعد ذلك انضم الى الروس وكان معه احمد خان ابن عدو الحاج مراد القديم .

واخذ الحاج اغا ينادى بالحاج مراد ان يستسلم كما فعل كارجانوف ، وجاوب الحاج مراد برصاصة كما فعل من قبل .

فصاح الحاج انا وهو يشهر سيفه : « اشهروا سيوفكم يا رجالى ! »
 فارتفع مائة صوت لرجال انتقضوا يزعمون بين الشجيرات .
 وعدا الجنود المرابطون فيما بين الشجيرات الا ان صريف الطلقة
 تلو الطلقة كان ياتيهم من خلف الخندق ، فسقط منهم ثلاثة وتوقف
 المهاجمون لدى تخوم الأجمة واخذوا يطلقون النار كذلك . وبدعوا
 يقتربون من الخندق تدريجا فيما كانوا يطلقون ويسرون جريا من
 خلف شجيرة الى اخرى . واقلع بعضهم في العبور وسقط غيرهم
 تحت رصاص الحاج مراد ورجاله : وكان الحاج مراد يطلق دون ان
 يخطيء وقلما أهدر جمز الوطلقة كذلك ، وكان يصيح من الفرح كل
 مرة يرى فيها ان رصاصه اصابت هدفها . وجلس خان محمد على
 حافة الحفرة ينشد « لا اله الا الله » واخذ يطلق رويدا رويدا الا انه
 كثير ما أخطأ هدفه . وارتعش جسد الدار جميعا لشدة رغبته في
 الهجوم على العدو وخنجره في يده . وكان يطلق كثيرا خابطا خط
 عشواء وينظر بلا انقطاع الى الحاج مراد ويمتددا الى وراء الخندق .
 اما حنفي الأشعث بأكامه المطوية الى اعلا فكان يقوم بعمل الخادم
 حتى هنا : فكان يشحن بالرصاص البنادق التي كان بناوله اياها
 الحاج مراد وخان محمد ويوصل في عناية الرصاص الملقوف في خلق
 ذلك الى مكانه بكياس البندقية ، ويصب البارود الجاف من قاروره
 في الطاسات !

ولم يلبث باطية في الحفرة كما فعل الآخرون وانما ظل يجرى الى
 الخيل يسوقها الى مكان اكثر امنا ، يصرخ بلا انقطاع ويطلق دون
 ان يستخدم لبندقية دعامة ما ، وكان اول من جرح ، اذ دخلت
 رقبته رصاصة فجلس يبصق دما ويعرق ثم جرح الحاج مراد وقد
 اختزقت الرصاصة عاتقه ، فمزق من بطانة مشلحه شيئا من صوف
 القطن وحشاه به الجرح واستطرد يطلق .

فقال الدار المرة الثالثة : « قلنظر اليهم باسيافنا ! » ونظر من
 خلف جرف التراب متاهيا للانتفاض على العدو ، الا ان رصاصة
 صدمته في تلك اللحظة فماد وسقط على ظهره فوق رجل الحاج مراد
 الذي نظر اليه . وكانت عيناه اللسان تحكيان عيني الحمل جمالا
 تنظران الى الحاج مراد في ايمان واهتمام واخترج دون ان يفتتح فمه
 الذي مطت شفته العليا كأنه طفل . وسحب الحاج مراد رجله من
 تحته واستطرد يطلق .

وانحنى حنفي فوق الدار واخذ يستخرج الذخيرة غير المستعملة

من اغلفة الفسك التي في سترته .

وفي هذا الوقت نفسه استمر خان محمد يقنئ وهو يعبئ ويطلق
 مستأنبا وجرى العدو من شجيرة الى شجيرة يهلل ويصيح ويقترب
 في اطراد .

واصاب الحاج مرادا رصاصة اخرى في جنبه الايسر فوجد في
 الحفرة وسحب مرة اخرى شيئا من صوف القطن من مشلحة وحشا
 الجرح وكان هذا الجرح الذي اصاب جنبه خطرا فاحس بانه في
 طريقه الى الموت .

وتلاحقت في خياله الذكريات والصور بعضها في اثر بعض في سرعة
 فائقة . والان . رأى ابا النزال خان الضليع والخنجر في يده وهو
 يمسك خده المقدود وينقض على عدوه ، ثم رأى فورونتسوف العجوز
 الضعيف الفاقد الدم بوجهه الاض الماكر وسمع صوته الناعم ، ثم
 رأى ولده يوسف وزوجه صفية ، ثم وجه عدوه شامل الشاحب ذى
 اللحية الحمراء بعينيه النصف مطبقتين . مرت كل هذه الصور في
 ذهنه دون ان تثير في دخيلة نفسه أى شعور : فلا اشفاق ولا غضب
 ولا رغبة كائنة ماكانت ، اذ بدأ كل شيء فاقد الاهمية بالنسبة لما كاد
 ان يبدأ اولما بدأ فعلا في دخيلة نفسه .

ورغم هذا فقد تابع جسده القسوى الشيء الذي كان قد بدأه .
 فاستجمع ما بقي من قوته ونهض من خلف الجرف ، واطلق غدارته
 على رجل كان يجرى اليه من توه « واصابه . وسقط الرجل . ثم
 خرج الحاج مراد من الحفرة خروجا تاما وعرج في تشاقل ، وذهب
 - وخنجره في يده - مباشرة الى عدوه . »

ودوت بعض طلقات فترنج وسقط . واندفع عدد من الجنود
 المرابطين صوب الجسد الذي سقط وهم يصيحون صيحات النصر .
 غير ان الجسد الذي لاح ميتا تحرك فجأة ، فنهض اولما الراس
 العارى الحليق الدامى ثم اليدان المسكتان بارومة شجرة . لقد بدأ
 رهيبا الى درجة ان اولئك الذي كانوا يعدون صوبه توقفوا في
 الحال . ولكن رجفة سرت فيه فجأة فترنج بعيدا عن الشجرة ،
 وسقط على وجهه ممدد الجسد جميعا كأنه شجرة عوسج اجتشت
 ناقدة الحراك .

ولم يتحرك ولكنه ما يزال يحس .

قلما طمن الحاج انا الحاج مرادا - وكان اول من ادركه - بخنجر
 رأسه لاح له ان أحدا يدقه بمطرقة ، ولم يدرك من الذى فعل

هذا ولا لماذا فعله . وكان هذا هو آخر ما وعى عن اى اتصال له بجسده فلم يعد يحس شيئاً بعد عندما اخذ اعداؤه يرفسون ويهدمون الشيء الذى لم تصيح له به علاقة .
ووضع الحاج افا قدمه على ظهر الجثة ، واطاح راسه بضررتين ودحرجها بقدم في حرص حتى لا تلوث حدائيه بالدم . وانجس الدم القرمزى من شرايين رقبته ، وتبعه دم اسود من الرقبة بلل الحشائش .

وتجمع كارجانوف والحاج افا واحمد خان ورجال الجيش المرابط تجمعوا مما - كما يتجمع هواة الصيد حول حيوان ذبيح - محتفلين بالانتصار بالقرب من جثة الحاج مراد ورجاله (حنفي و خان محمد وجمز الو الذى ربطوه) وبين دخان البارود الذى تعلق من فوق الشجيرات .

وبدأت تزغرد الآن من جديد المسادل التى كانت امسكت عن تفريدها ما استمرت الطلقات ، بدأ اول الامر عندليب دان ثم عنسادل اخرى بميدة في اجواز الفضاء .
لقد كان هذا الموت هو الذى اذكرتنى شجرة العوسج التى سحقت بين الحقل المحروث .

« تمّت »

اشترك في روايات الهلال

وكلاء الاشتراكات مجلات دار الهلال

السيد / هاشم على نحاس
جدة - ص . ب رقم ٤٩٣
المسكة العربية السعودية

جده :

M. Miguel Macoul Cary,
B. 25 de Marac, 996
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo, BRASL.

البرازيل :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopstrove Road
London S.E. 26
ENGLAND

انجلترا :

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)

هذه الرواية

هذه الرواية من اجمل ما كتب تولستوى ، انها قصة بطولة رجل من ليسان القوازيك الذين دافعوا عن روسيا بدفانهم وحرروها من البولنديين ، وكانت النتيجة ان اضهدتهم البولة وطاردتهم واذلتهم لمجرد انهم مسلمون . ان الحاج مراد رمز عل البطولة الاسلامة وشرف المسلم الذي يخدم وطنه ويقوم بواجبه ويعالظ عل راسه مرفوعا عزيزا
لقد ظلمت روسيا اولئك الناس اذ اذلتهم ثم شردتهم في نواحي سيبيريا
القصة تحكى ملحمة الحاج مراد ، ذلك البطل الباسل الذي وهب نفسه لتفسيه بلاده .
لقد كتبها تولستوى بكل صدقه واخلاصه ، ولم يحبها الروس في العصر القيصري لانها كشفت عن مخازيه ولم يحبها الروس في العهد التسوعي لانها بينت ان ستالين كان متصببا مسيحيا روسيا على اسوأ صورة يتصورها البشر ، ولكن لينين يفضى في اذهان البعض وكانه مثل لابغال حرية الفكر

ان الحاج مراد روايه ينبغي ان تقرا ، واسلوب مجدى الدين حفى ناصف في ترجمتها تحفة ادبية . لم نعد نقرا هذه النثر الصافي . وروايات الهلال يسعدنا ان تهدي قراها هذه التحفة الفنية الادبية البديعة